تهامة
TIHAMA

الكتاب العربي السعودي [٣١]

النجم الفريد

مجموعة قصصية

ترجمة

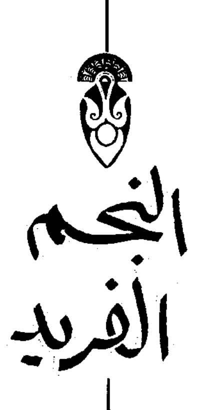
عزيز ضياء

الطبعة الأولى

١٤٠١هـ - ١٩٨١م

بسم اللہ الرحمن الرحیم

النـاشـر
تهـامـة
جـدة - المملكة العربية السعودية
ص.ب ٥٤٥٥ - هاتف ٦٤٤٤٤٤


النجم
الفريد

النجم الفريد

دخل فتى من (الجنس الابيض) فى السادسة عشرة من عمره ، ذات صباح الى قرية (الشيروكى) من قرى الهنود الحمر ، واقعة على سفوح جبال (سموكينز) ، واعلن للهنود الذين كانوا يحملقون فيه مندهشين ، أنه (أتى ليعيش معهم ...)

ولم يملكوا الا ان يفحصوه بعيونهم الناقدة ، وقد أعجبهم بنيانه المتين ، وعضلاته المحبوكة ، وأمعنوا النظر فى عينيه ، ومن المحال أنهم قد أخفوا ما رأوه فيهما . والأرجح أنهم قد رأوا نفس ماتراه ، حين تتأمل صورة (سام هوستون) بعد ان تقدمت به السن ، وأضفى عليه النضال ملامح الشخصية النادرة ، وهى تلك النظرة المركزة على شيء بعيد لامع كنجم يضيء،ويتلألأ ، حتى فى زرقة ضوء النهار .

وكان سام هوستون من أصل اسكتلندى أيرلندى ، ولد فى (فرجينيا) بالقرب من (لكسنجتون) فى الثانى من مارس عام ١٧٩٣م . وكان أبوه رجلا له كل مايحتاجه المرء ليكون من ابناء (تكساس) أو ليكون ممن صنعوا تكساس فى التاريخ .

ولاشك أن (القوة ... والحرية) هما الباعثان اللذان دفعا سام ، وهو الثانى بين تسعة اطفال ، بعيدا عن عمله (كمساعد فى مخزن بضائع) فى (مارى فيل) .

وقد رحب الهنود الحمر بابنهم الجديد ، وسرعان ماعرفته القبيلة (ابناً بالتبنى) لزعيمها . وأطلقوا عليه اسم (كولونيه) وهى كلمة معناها (الغراب النوحى) . وهو طائر جميل خفيف الحركة ، حاد البصر ، عالى التحليق . ولعل الهنود ، قد أحسنوا الاختيار حين أعطوا (سام) اسمه الجديد ، وهم يعتقدون أن لكل أمرىء من اسمه نصيبا .

وقد عاش الغراب النوحى ، مع الهنود ثلاث سنوات ، تعلم منهم خلالها كيف يستغنى ، وكيف (يجوع) وكيف ينام نوما عميقا ، الى جانب ما اكتسبه من حب للزخرفة

والألوان ، على ان أهم ما استفاده من حياته معهم هو (كيف يغلق شفتيه ـ مدى الحياة ـ على سر يؤتمن عليه) وكيف ينبغى أن يخاطب (الجماهير) ...؟

ولا ينكر ان الفتيات الهنديات قد علمنه (الحب) . ولعله كان يمكن ان يكون اعظم فارس تتعشقه الناس فى يومه . وهذا الى جانب صفة هامة أخرى ، سلحه بها الهنود الحمر ، وهى المكر الاستراتيجى الذى استطاع أن ينقذ به (تكساس) حين جاء يوم اصبحت فيه فى حكم (المفقودة) تقريبا .

ولكن البرارى الموحشة ، لم تستطع الاحتفاظ بسام طويلا . ففى يوم ميلاده العشرين أخذ سام دولارا فضيا من عريف التجنيد ، رمزا لالتحاقه بالجيش ليحارب فى حرب عام ١٨١٢م . وقد منحته (أمه) بندقية أبيه الذى كان أحد أبطال الثورة ، ووضعت فى أصبعه خاتما ، ظل ينقله من أصبع لآخر ، أصغر منه كلما نما ، الى أن استقر فى خنصره باليد اليسرى ، ولم يخلعه الى أن مات . لان كلمة (الشرف) كانت محفورة فى الخاتم منذ وضعه فى أصبعه الصغير لاول مرة منذ زمن بعيد .

وذهب (سام) مع رفاق الحرب القدامى ليحارب القبيلة المتوحشة (كريك) وكانت متحالفة مع البريطانيين فى معركة (هورشويند) . ولعلها كانت أعظم معارك الهنود فى التاريخ . تلألأ نجمه كبطل ، ولما أصيب فى فخذه بسهم ، حملوه خارج الميدان وتوقف القائد نفسه ليأمر بحمل الفتى الذى تعلو وجهه صفرة الى المؤخرة ، ولكن حين بلغت المعركة حد اليأس ، تمرد هوستون على الألم ، وانطلق يقود هجوما مضادا وسقط وبه جرحان من البنادق . وقد انحنى الموت ليلتقطه دون ريب ، ولكن سرعان ماتركه وشأنه بالعجز الذى أصاب ذراعه اليمنى ولازمه مدى الحياة .

ووجد (الجنرال أندروجكسون) فى (سام) مساعدا كفئا . رشحه ليكون وكيل منطقة الهنود (الشيروكى) وكان من واجبه ـ وهو صديقهم القديم ـ ان يقنع جزءاً من القبيلة بالانتقال وراء (المسيسيبى) ، تاركين أرضهم (للبيض) . واعتبر هذا انتصارا رائعا اذ لم تسفك فيه قطرة دم واحدة .

ولكن سام كان يتطلع الى ماهو أكبر وأسمى من سياسة (الهنود الحمر) . ولعله بنفس النظرة البعيدة كان يرى نجمه يضىء فى سماء المستقبل الممتد .

وبدأ يدرس القانون فى ناشفيلد ، وما أشد ما أثار من دهشة الرفاق ، حين نجح وسمح له بممارسة المهنة فى ظرف ستة شهور .

وأخذ تألق النجم يزداد يوما بعد يوم خلال السنوات العشر التالية ، حيث أصبح (سام هوستون) المحامى العام ، وأحد أعضاء الكونجرس فى واشنطن ، وأخيرا حاكما على ولاية (تنيسى) . وتوالى انتخاب الجماهير له من وظيفة الى أخرى . ولم يكن ذلك لانه كان ذراعا قوية (للجنراك أندروجكسون) ، وإنما لأنه كان يمتاز بنفس الخصائص والصفات التى امتاز بها جكسون . كان محاربا بطبيعته ، وسياسيا محنكا ، وجنديا مطيعا . وكان ـ وهو على صهوة جواده الأشهب ـ يبدو بطلا من منبت شعره الى أخمص قدميه .

وقد ميزه وقاره وسلوكه ، رغم صغر سنه ، فى كل مجتمع عرفه ، ولم يكن ينسى أبدا (اسما أو وجها يمر به) وقد عده المئات من الناس أخلص صديق لهم . وكان الاطفال يلاحقونه ملحين أن يحفر لهم شيئا على قطعة من الخشب بمبراته الشهيرة ، التى كان يحملها حتى فى (الكونجرس) ... وكان سام فى الخامسة والثلاثين من عمره يوم انتخب (جكسون) رئيسا للولايات المتحدة .

وفى سنة ١٨٢٩م.تزوج سام (اليزا الن) وهى فى ربيعها التاسع عشر ، وكانت سليلة أسرة عريقة من تنيسى وحين تقدم بعد ثلاثة شهور لإعادة انتخابه ، تركته زوجته فجأة . وأمسك أعداؤه ـ وما أكثرهم ـ بهذا السلاح . وهاجموه بقسوة . ولكن (سام) أغلق شفتيه ، كما يفعل الهنود الحمر تماما ، وكان يأبى أن يهاجم امرأة ، حتى ولو كان فى ذلك إنقاذ سمعته . وقد ندمت الزوجة (الصغيرة) ، وحاولت ان تعود اليه ولكن بعد فوات الأوان .

وعاد (سام هوستون) الى أصدقائه القدامى من الهنود الحمر ، وكانوا فى منفاهم فى الغرب وعندهم تزوج زوجته الثانية (تيانا روجرز) وهى احدى حفيدات (ويل روجرز) . ومع أن مركزه قد تحطم ، ومجده السياسى قد أصبح رمادا نتيجة للفضيحة التى الحقتها به زوجته ، فقد استطاع سام ان يصبح قوة فى القبيلة الهندية ، التى كثيرا ما منعها من الاشتراك فى حرب كبيرة مع القبائل الأخرى .

ولم يجد بدا فى النهاية من ان يذهب الى واشنطن مرتديا ملابس الهنود الحمر ، ليعلن للرئيس جكسون الكثير عن غش وتلاعب وسفالة من يسمون (وكلاء الهنود) الذين كانوا يختلسون حقوق (الهنود) و (الحكومة معا) وقد أصغى اليه جكسون وطرد عددا من الوكلاء غير الاشراف والغى عقودا كثيرة اتضح أنها مخالفة للعرف والشرف .

واعتاد (الغراب النوحى) ان يأتى الى واشنطن كل عام ، وينزل ضيفا على جكسون فى (البيت الابيض) مرتديا ثياب هندى كبير . أما الهيئة الاجتماعية التى هجرها سام هوستون فقد كانت تعجب به بقدر ما تشمئز منه وتحقد عليه . فقد عيروه ـ عبثا ـ بأنه رجل لا وطن له ... هندى ... أحمر ... مصيره قبر رجل سكير .

ولكن النجم كان يصعد ويتلألأ فى الافق مرة اخرى . وعلى الاخص حين سافر سام هوستون الى سان انطونيو .

وكان سام (صانع السلام) فى حياة الهنود ، عندما عبر بجواده النهر الاحمر ودخل الارض الواسعة التى قدرلها فيما بعد أن تصبح (ولاية تكساس) التى كانت عام **١٨٣٢م**. جزءا من مقاطعة مكسيكية تسمى (كوهيوة) تمتد الى حدود لايعرفها انسان فى الروكى ، وتمتد فى نفس الوقت ، فى اعماق سهول بفالوا .

وكانت تكساس ارضا مجهولة لم يكتشفها احد ، واكبر من اى مملكة فى اوروبا عدا روسيا . جناح منها منبسط على مياه الخليج حيث أصبحت تستقبل تجارة الدنيا الآن ، وجناح آخر ممتد على الثعبان الملتف عند (ريوجراند) . وذراع تطول لتلمس حزام الصنوبر فى الشرق ، وذراع أخرى تتمطى لتصل الى اعماق الصحراء ، تغطيها مساحات من الاعشاب .

وكانت الارض فى ظاهرها ، كأنها قد أعدت لتكون موطنا لكل ذى حافر ، ولحقول الطيران ، وقطارات السكك الحديدية ، تحمل القطن والذرة والخشب والفواكه والماشية والقمح ، من الاراضى السوداء ، والاراضى الحمراء ، ومن الغابات والسهول ، والتلال والوديان .

ولم يكن هناك من يستطيع أن يرى ماتعنيه (تكساس) لامريكا . بما فيها من اعظم حقول البترول ومن كميات تفوق الحصر من الغاز الطبيعى ، ونصف إنتاج العالم من الهليوم والفحم ، والكبريت والحديد ، والاسفلت والبوتاس ، والنحاس والفضة ، والزئبق والتانجستن ، واليورانيوم والتيتانيوم .

ولكن ، قدر لتكساس ، ان ترى أخيرا رجلا يستطيع أن يرتفع الى مستواها الضخم . وكان الرجل ... هو (سام هوستون) .

ولم يدر بخلد سام أنه سيكون (جورج واشنطن) آخر بالنسبة (لتكساس) . ولكن الارض الواسعة جذبته اليها . وكان هناك رجال يحتاجون اليه ، وسرعان ما اكتشفوه .

كان الامريكيون يسكنون تكساس خلال السنوات العشر أو العشرين الماضية .. كانوا من الفلاحين والصيادين والتجار ... وكانت أرض (تيجاس) أرضا غير مسكونة تقريبا فى عهد الحكم الاسبانى ... ولما نالت المكسيك استقلالها عام ١٨٢١م . القت نظرة متعبة على حدودها الشمالية ، ولم تجد بدا من ان تغلق حدودها فى وجه الهجرة الامريكية (رسميا) .

ونشأ هناك جيل جديد ، من رجال يجيدون الركوب كما يجيده المكسيكيون ، ويطلقون النار كما يطلقها اهل (تنيسى) ويحاربون كالأبالسة . وكان هؤلاء الرجال يشعرون بريح الشمال تصفر فى عظامهم . وحين كانوا يتبادلون الانخاب ، كانت صيحتهم التقليدية دائما (الحرية ... وتكساس) .

واستوطن سام هوستون ، هذه الارض عام ١٨٣٦ م . ليمارس القانون ... ولكن تكساس كانت تشب وتركل وتتحفز كجواد برى تقرصه ذبابة ، وعلى الاخص حين اشتد ضغط (سانتا انا) ديكتاتور المكسيك ، الذى هدد مرة بأن يرفع علمه على البيت الأبيض نفسه .

ومر عام ... ووجد سام هوستون نفسه قائدا (لجيوش جمهورية تكساس المستقلة) اما عدوه مايزال يردد تهديده العتيد ، وقيل يومئذ ، (لقد وجد الحصان البرى راكبه الفحل) .

وكانت جيوش جمهورية تكساس المستقلة عبارة عن عصابات قليلة العدد من المواطنين ، والانتهازيين ، سريعى الغضب ، بعيدين عن نهج الحكمة والتعقل .

ونشبت معارك عديدة مع المكسيكيين لم تكن ذات بال ... ولكن ربيع ١٨٣٦م ، جاء بالجو الرطب ، ومعه الدكتاتور (سانتا انا) يقود ثلاثة جيوش حسنة التدريب والتنظيم ، ليحتل المنطقة كلها احتلالا كاملا . وكان يسير فى اتجاه (سان أنطونيو) .

وعبثا حاول (القائد) سام هوستون ان يحمل جنوده على التراجع والهرب من (مصيدة الموت) فى (الامو) . لقد قدر للشجاعة المستعصية ان تتحدى الحكمة

الحربية ... وانتهى الحصار بمذبحة ذهب ضحيتها مئات من الرجال فى كثير من أنحاء تكساس .

وما هى الا بضعه أيام ، حتى كان ما بقى من جيوش (جمهورية تكساس المستقلة) ٣٧٤ رجلا ، هم كل الجيش الصامد فى ميدان القتال .

وجاء يوم وقف فيه الديكتاتور المتغطرس ، واثقا أنه يستطيع ان يعطى نفسه وجيوشه قسطا من الراحة على الساحل بين نهر سان جاك بثنو ، وبافلوبايون ، قرب مدينة هوستون .

وكانت وقفة الديكتاتور فى نفس الزاوية التى اراد سام هوستون أن يضعه فيها .

وكانت (ساعة الراحة بعد الظهيرة) مقدسة عند المكسيكيين . وهى نفس الساعة التى اختارها سام لحرق الجسر الوحيد الذى يمكن أن تعبره إحدى القوتين فى تقهقرها .

وركب ... وصاح (تذكروا الامو ...) وصاح وراءه كل أهالى تكساس (تذكروا الامو ...) .

وبعد خمس عشرة دقيقة ، ربح سام هوستون المعركة الفاصلة ... وفى الصباح التالى كانت جميع القوات المكسيكية قد قتلت ، أو أسرت .

وجرح هوستون مع تسعة او اربعة وعشرين من جرحى المعركة ، وقد تغلب بعد عدة اسابيع على التسمم الدموى الا انه اضاف إلى شخصيته (العرج) مدى الحياة .

واستطاع (الاعرج) ان ينتصر على جميع مزاحميه فى انتخابات (الرئيس الاول لجمهورية تكساس) ... التى كانت قرية ... مجرد قرية عاصمتها ... وثلاث سفن اسطولها ... وتشكيلة من البشر ، جيشها مع خدمة بريدية ، ومحاكم ، وكونجرس ، و(دستور) .

وكان اول ما اهتم به سام هوستون ، هو ضغط نفقات الجمهورية المستقلة ، ليتاح لها ان تكون دولة لها سفراؤها فى (لندن) و (باريس) و (واشنطن) . الى جانب نظامها المالى الخاص ، وعلمها ذى النجمة الواحدة .

واذ لم يكن (دستور الجمهورية) يسمح باعادة انتخاب (سام هوستون) فقد تقاعد (محفوفا بالاحترام و التقدير) . ووجد عزاءه الكبير فى زواجه (الثالث) من مرجريت لى (من الا باما) التى يقول من أرخ للبطل انها جاءته (بالتقوى والفلاح ، وأنجبت له ثمانية أطفال) .

ولم يكن الرئيس (ميرابو برنارت لامار) الذى انتخب خلفا (لسام هوستون) فى مستوى تكساس . فقد اخذت الفوضى تدب ، وتنشر خيوطها فى حياة المواطنين . كان لامار رجلا طائشا ، ترك المفاوضات الهادفة الى ضم تكساس الى الولايات المتحدة ، واتجه الى (مغازلة) بريطانيا من جهة ونابليون من جهة أخرى .

ومع الحربين اللتين اثارهما ضد قبيلة (الشيروكى) و (البوتاكان) أخذ يسرف فى اصدار اوراق النقد ليدفع نفقات مغامراته ... وكان طبيعيا ان تسقط عملة تكساس الى ٢٠ سنتا للدولار الواحد ... ثم الى ٣ سنتات .

واصبحت البلاد مدينة بالملايين . وفقدت إيمانها بنفسها . وهزلت خدمة البريد ، واصبح الهنود الحمر يقتلون من يشاءون ، و (يسلخون الرؤوس) فى العاصمة .

ولم يقف طيش لامار عند حد . فقد جهز حملة طائشة لاحتلال (سانتافى) ... هزمت شر هزيمة .

ولم تجد (تكساس) بدا من ان تطلب من سام هوستون العودة الى الرياسة مرة أخرى . وكان هذا فى نفس الوقت الذى كان فيه (سانتاانا) يوغل فى طريقه الى تكساس ليثأر لهزيمته التى لم ينسها قط .

وكانت خزينة (الدولة) خاوية ، والجيش غير منظم . والقوى البحرية قد اعلنت العصيان .

واستفاد سام هوستون من (حالة تكساس الخطيرة) كافضل اداة سياسية للنجاح ، واستطاع ان يداور بريطانيا وواشنطن ، ليقنعا (سانتاانا) بالانسحاب .

ومرة اخرى استطاع (الغراب النوحى) ان يهدأ ، وان يعمل ، وكان اهم ما عنى به هو ضغط النفقات الى درجة الضرورة القصوى ... وكان هذا هو طريقه الى اعادة (النظام) و (الائتمان) ... لتصبح تكساس ـ مرة اخرى ـ ارض الثروة والاحلام .

وكان ما يحلم به (سام هوستون) منذ سنوات ، هو الانضمام الى (الوطن الأم) ولكنه لم يكن يستطيع ان ينسى ، أن انضمام (تكساس) الى الولايات المتحدة الامريكية يجب ان يتم على اساس من (قيمتها الحقيقية) .

وقال (سام هوستون) ـ وما يزال مواطنو تكساس يرددون كلمته حتى اليوم ـ (أن تكساس يمكنها ان تعيش دون الولايات المتحدة ، ولكن الولايات المتحدة لا تستطيع ان تعيش دون تكساس ، الا بمغامرة عليها ان تقدر خطورتها)

وعلى هذا الأساس دخلت (تكساس) الاتحاد باعتبارها امة مستقلة عام ١٨٤٥م.

وكان هوستون ، رائع الوفاء لتكساس وللولايات المتحدة معا ، حين حرص على ان يتلقى (علم) تكساس ذا النجمة الواحدة (بيده) لئلا (يلمس الارض أبدا) .

ودخلت (النجمة الواحدة) لتأخذ مكانها فى علم (الولايات المتحدة ذى النجوم).

وأرسلت الولايات الجديدة (سام هوستون) ليمثلها فى (مجلس الشيوخ) . وبهذه الصفة (عضو مجلس الشيوخ) خدم (سام هوستون) ولاية (تكساس) أربعة عشر عاما .

ولكن الزوابع ، كانت تواجه العلم (ذا النجوم العديدة) . وأخذ خطر الحرب الاهلية يظهر فى الافق . وكان على (سام هوستون) ان يقف فى وجه الاعصار . وقالها صريحة مدوية : (أنا لا افرق بين حقوق الجنوب وحقوق الشمال ... حقوقنا مشتركة بين الاتحاد كله ... ومذهبى اننا سنحتفظ بحقوقنا كاملة ...) .

وحين ثار فى وجهه الديمقراطيون الجنوبيون ، وقف امامهم ، يصوت المرة تلو المرة ، فى صالح (الاتحاد) . مؤمنا ـ كما ظل يقول ـ بان المبادىء فوق السياسة ... وعليه هو ان يقف بجانب (مبادئه) .

وفى عام ١٨٥٩م.رشح نفسه (على نفس المبادىء) وسار فى الولاية يدق الارض برجله (الصناعية ويسمع جماهير تكساس) تهتف له باصوات تشق عنان السماء . ونجح فى الحصول على مركز (الحاكم) دون ان يؤيده حزب من الاحزاب ، وللمرة السابعة ، نجح (سام هوستون) فى ان يضع فى يده مقدرات تكساس . ولم تقف المعارضة مكتوفة اليدين ، ولكنه لم يتردد فى الوقوف ضدها وقال كلمته المشهورة :(اذا كان ضروريا ان ننفصل عن الاتحاد فلنفعل ذلك بسلام ودون عداء ...).

وتمردت تكساس على حاكمها وطالبته بان يقسم يمين الولاء للانفصاليين فلم يتردد فى ان يقول : (انى احب تكساس الى درجة تجعلنى لا احب لها النزاع وسفك الدماء ، ولن اسمح ابدا بأن اطيح بالمبادىء التى حاربت من اجلها .) واعلنت الولاية ان وظيفة (الحاكم) أصبحت خالية .

وتقاعد (سام هوستون) العجوز ، مرة اخرى ... وجلس يدخن ، بين احواض الزهر التى كانت تعني بها زوجته ورجله الصناعية مستندة الى مقعد آخر ، وهو ينتظر اخبار ابنه الذى كان (يحارب) فى صفوف الجيش ذى الأردية الشهباء .

وظل (سام هوستون) وراء تكساس يتتبعها بقلب لم ينسها قط ، ولم يهتز امله فى مستقبلها الكبير ، ولم يفتر لسانه ابدا عن ترديد اسمها ، كلما جاءه خبر عن الهزيمة او النصر بين الاتحاد والانفصال ..

وعلى فراش الموت ... بعد ثلاثة اسابيع من (هزيمة الانفصاليين) ... كانت الكلمة الاخيرة التى سمعها الواقفون حول فراشه هى (تكساس . تكساس ..) .

واليوم (يعيش) ... سام هوستون فى اعماق قلب تكساس ، كاشرف وانبل رجل خدم الهدف والمبدأ والآمال الكبار .





جوزيف لي
صانع الملاعب

جوزيف لي
صانع الملاعب

كان القبض على اطفال المدينة الذين يلعبون فى شوارعها ضمن العمل اليومى لرجل البوليس فى المدينة.وهذا لان الالعاب كانت تعطل المرور . وعليه فقد كان لعب البلى والكرة والطائرات والقفز ونط الحبل جميعها العاب يمنعها القانون .

وكان من عمل القاضى فى بوسطن ان يرسل الاولاد الى السجن عام ١٨٩٠م .
وقال الاولاد . لا يمكننا اللعب فى حوش المدرسة ولا يسمح لنا باللعب فى الشوارع واذا لعبنا فى حوش الطوب يطردنا رجال البوليس الى أين سنذهب ؟ ولم يكن هناك جواب لتلك الاسئلة .

والمحكمة تسأل الاسئلة ولا تجيب عليها . وكان القاضى يدق مطرقته واذا دفع الآباء الغرامة كان بها والا فيرسل الاولاد الى السجن مع المجرمين .

واصبح من عادة المخبر الصحفى ان يكتب خمسة سطور كل صباح عن الحوادث التى حصلت فى بوسطن فى اليوم السابق بخصوص الملاعب.وقد لعبت العناية المحبة للاطفال دورها حينما وقع نظر رجل ارستقراطى من سكان بيكون هيل على تلك السطور،وصاح الرجل ،وهو يلقى الجريدة من يده . انى أشعر ان هؤلاء الاولاد قبض عليهم لانهم يعيشون .

وكان جوزيف يغضب اذا كان هناك ما يستوجب الغضب وكان غضبه يتحول الى قوة دافعة،وذهب الرجل من فوره الى سوت باى،وهى منطقة خشنة فى بوسطن ليراقب الاولاد وهم يلعبون.وكانت لهم اكثر من طريقة لتسلية انفسهم،ولكن القيام بأية تسلية سليمة وطبيعيه كان مستحيلا فى مكان يتجمع فيه كل ثمانمائة آدمى فى كل فدان،ويتزاحمون

ليسكنوا ويعملوا وينامو ويتوالدوا ويموتوا . وكان القانون يمنع الاولاد من اللعب فى الفراغ الموجود امامهم،ولم يكن هناك ما يخالف القانون فى التعدى،وحرب العصابات والتشرد والتدخين والقذف والحلف والهروب من البيت والحصول على معلومات عن الجيش فى الازقة وزيارة الاماكن المشبوهة الى منتصف الليل او حتى الى الصباح .

وتذكر جوزيف لى أيام طفولته وما كان بها من مزايا . وكان والده يعتبر المواطن الاول فى بوسطن.وكان اهله يرجعون الى اعرق العائلات.وكانت طفولته مثل الحلم الجميل كله تسلية بريئة . وقد تمتع بالحفلات الخلوية والمراقص والتزحلق والتجديف فى ضوء القمر واللعب على التلال المغطاة الى حفيف الاشجار او سماع القصص امام نار المدفأة فى المنزل . وقد قدمت له المساعدات ليقوم باعداد فريق لكرة القدم والبيسبول وكان يتخلص من مخزون قواه فى الملاكمة وتعلم عن البنات بمعاشرة آنسات من طبقة راقية

ولكن هذا الارستقراطى لم يكن متكبرا . وكانت مدينته الجميلة مملوءة من المواطنين ذوى الفضل القادرين على الوفاء ، والذين احتقروا الايرلنديين من اهل البلد وكذلك مهاجرى البرتغال وايطاليا باعتبار انهم عناصر رديئة بالطبيعة من الاطفال الى ما فوقهم . ولكن جوزيف لى كان يؤمن بالاطفال وقال:« لما خططنا مدننا تركنا الاطفال فى الخارج ولكن لكل طفل الحق فى ملعب آمن . والولد الذى دون ملعب هو ابن الرجل المتعطل . والطفل الذى له ملعب ردىء هو ابن للرجل الذى له عمل كان يحسن به الا يعمله »

وكان هذا الرجل الطويل الرفيع فى الثلاثين من عمره أبا لعائلة نامية وكان يعرف حاجة الاطفال،وصمم على الحصول عليها من اجلهم .

ولم يخفه ان يوجد اثنا عشر مليون طفل فى البلاد والذين ليس لهم مكان يلعبون فيه سوى الحوارى القذرة ، ومقالب المدينة والشوارع الخطرة . ولم ييأس لان احدا سواه لم يفكر كما فكر هو ان اللعب هو جزء رئيسى من التعليم وانه وظيفة رئيسية من وظائف الجسم والروح .

ولما قام بمسح مدينته ووجد ان اكثر من نصف العائلات يعيشون على اقل جدا من نصف مساحتها . وان الموتى فى المقابر كانوا يتمتعون الى يوم الدين بمساحات اقتطعت من المناطق المزدحمة ووجد ان الحدائق العامة فى المدينة لم تكن فى موقع يمكن الناس من الانتفاع بها . وكان هناك موظف وظيفته منع الاطفال من الرقص على الحشائش .

وذهب جوزيف لى الى شارع لم تطأه أقدام من يماثلونه فى المركز الاجتماعى،وحصل على إذن لاقتراض قطعة أرض فضاء وبدأ يرفع ما بها من نفايات خطرة ولكنه عنى بترك أو استحضار النفايات التى يعرف الاطفال الاستفادة منها براميل وألواح للمراجيح . ولبناء الحصون والطين لعمل الكعك والفطائر . الواح قديمة يمكن الانزلاق عليها وصناديق لعمل الطوابى،وبيوت العرائس،ثم نادى الأطفال،وأخبرهم أن هذا هو ملعبهم .

وحضروا بهتاف وقفز ونط وكان سرورهم مما يثير العواطف ولكنه اذ وقف جانبا يراقبهم رأى أنهم يحتاجون الى تعلم الكثير . ووجد انه ما لم يبدأ لهم بعض الالعاب فانهم كانوا يبدأون فى تكوين عصابات للقتال،وان الكبار اضطهدوا الصغار،وطردت كبار البنات صغارهن من على المراجيح والواح الانزلاق . ووجد انه فى حاجة الى ملعب للبيسبول وكرة القدم وانه محتاج الى الظل فى حالة الطقس الحار لأن الاولاد فى الايام الحارة تركوا الملعب خاليا.وقد وجد اصدقاءه الصغار فى الحوارى والأزقة حيث الظل،وقد عادوا الى المغامرة بأنواعها . والتدخين والجنس وحرب العصابات . وبالاختبار وجد ان الاطفال لا يعرفون كيف يلعبون وانه يجب تعليمهم .

علموا الاطفال اللعب . وقد أقام المشرعون الضاحكون ، والآباء المتشايخون ، والمحسنون المتعالون حاجزا من عدم الاهتمام بالفكرة . وقد امضى جوزيف لى الخمسين سنة التالية من حياته وهو يعظهم معلما بان لعب الاطفال هو عملهم وان اللعب مرادف للنمو وان الطفل يلقى بنفسه فى اللعب الى أقصى حدود شجاعته واحتماله . وأنه يتبع الكرة كل يوم الى مسافة أبعد فى مناطق لم تكتشف بعد،ويرجع كل مساء وهو كائن اكبر ـ اخلاقيا ـ بدأ فى اول اليوم .

فهناك فى منطقة سوت أند كان « لى » يعطى أبناء الفقراء الميراث الذى سرقته منهم مدينة بوسطن وهى تنمو وتكبر . ولما استأجرت إحدى الشركات الارض التى أقام عليها ملعباً انتقل « لى » الى الارض المجاورة وكبر الملعب سنة ١٨٩٨م .بإضافة ملعب إضافى واقام المراجيح وأكوام الرمل وملاعب الكرة وكانت أرض الملعب تعتبر من اردأ البقاع المهجورة فانقلب الى ركن مزهر للاطفال،ملعب مساحته ثلاثة افدنة ونصف .

للملاعب ٢٦٠ حديقة فردية للاطفال. وبعد ذلك أخذ « لى » حظيرتى جياد قديمتين وحولها الى ملاعب مغطاة يلعب فيها فى شتاء بوسطن الطويل . وكان الاولاد يلعبون فيها

البيسبول وكونوا لهم نوادى.وكان « لى » عاملا أساسيا فى كل هذا وقد وجه شبانا وشابات للعمل كمديرين للملاعب وكانوا يعملون ليلا من أجل الاولاد الذين يعملون نهارا .

وكان هناك ثلاثمائة عملية القاء قبض من أجل « العيش » أى اللعب ولم يكن هناك ما يماثل ملاعب جوزيف لى.وهنا وهناك قام عضو فى هيئة دينية أو معلم متحمس وغيرهما بمجهود من هذا النوع ولو ان بعضهم لم تكن له الدراية الكافية،ولم يكن هناك أى اتصال أو تهاون بينهم وكانت ملاعبهم فى العادة عارية لا حشيش فيها موحشة ومعدّة بالعاب تصلح للاولاد الكبار الاقوياء . أما صاحبنا « لى » فقد كان عنده قلب طفل.ووجهة نظر طفل،وقد خلق عالم الاطفال .

وكان الآخرون يغلقون ملاعبهم الساعة الخامسة أما « لى » فكان يتركها مفتوحة.وكانوا يغلقون الملاعب شتاء،وكان ينتقل الى ملاعب الشتاء . وكان « لى » يعلم ان اللعب الحقيقى . لعب الاطفال كان يماثل فن الفنان وبحث العالم،وأنه هو الشغل الرئيسى فى عملية البقاء صغيرا ـ النمو صغيرا ـ ولهذا أتى الأولاد على صوت مزماره أتوا مجموعة صغيرة اولا ، ثم جمهورا ثم أتى الف من الاطفال من بيئة قذرة .. خطرة .

.وانتقلت الفكرة مثل نيران الغابة من بوسطن الى شيكاغو التى اندفعت كرائد فى حركة بناء الملاعب وبينما كان « لى » مع الميجور كوينسى يجاهدان للحصول على حقوق مدينة للملاعب.صبت شيكاغو المال صبا فى مشروعات الملاعب ، وانشأت ملاعب صغيرة فى كل بيئة مجتمع ، وملاعب بلدية للرياضة ، وساحات عمومية للجولف والتنس . وكان بناؤها حدثاً جديدا لم يسمع به من قبل،وتبع شيكاغو فيلادلفيا وبتسبرج وبلتمور وسان فرنسسكو ونيوهامن وبروفدنس.وقد تبرعت شركات بمبان وأماكن مسقوفة لتحويلها الى ملاعب وازداد عدد الرواد من ألوف قليلة الى مئات الآلاف من الاطفال السعداء .

وأتت تقارير الشرطة تترى وهى تشهد ان عدد مخالفات وجرائم الاطفال قد تناقص لدرجة كبيرة فى محيط الملاعب . وان معارك عصابات الاطفال والسرقة والحوادث فى الشوارع تناقصت الى درجة كبيرة،وقرر رجال الدين ان نسبة الحضور الى دور العبادة زادت فى منافسة الملاعب وقلت نسبة الهروب من المدارس العامة واصبح الآباء يعلمون مكان وجود اولادهم واين يجدونهم،وهم فى اماكن آمنة .

وانتشرت الحركة الى اكثر من ١٥٠ مدينة،وانتخب جوزيف لى رئيسا لمؤسسة الرياضة والتى خدمها دون ان يتأخر عن حضور اجتماع واحد لغاية سنة ١٩٣٧م.وكانت الاجتماعات تعقد فى مدينة نيويورك . وكان « لى » يسكن فى بوسطن الا انه لم يتخلف عن اى اجتماع قط وقد حضر اجتماعا ذات مرة فى اليوم التالى لدفن زوجته الأولى مرجريت كابوت لى،وهى رفيقة لعب طفولته ومساعدته مدى حياتها . ولم يعرف احد مدى عمق المأساة الا سكرتيرته .

وقد قدم للمؤسسة من حر ماله مبلغ ٣٦٠,٠٠٠ دولار وقد كرس حياته للعمل وعمل عملا دؤوبا للحصول على المال من الآخرين . وكان يستعين بالخطابات الشخصية للحصول على المال،وقد جمع حوالى نصف ما هو مطلوب عن طريق التبرعات .

وقد ابتدع الكثير من الحفلات الموسيقية وغيرها وحفلات عيد الميلاد وما يتبعها من تمثيليات وتراتيل وحفلات يوم الاستقلال ٤ يوليو. وكانت كلها جديدة مبتكرة وأسس مباريات فى لعب البلى.واهتم بالعاب صغار الاطفال اهتمامه بلعبة البيسبول .

وكان « لى » رائد الفكرة يرى أن تلعب البنات فى مجموعة « فريق » وقد سبق الآخرين بسنوات حين قال: ان البنت يجب ان تعطى كل فرص الولد وان عليها ان تلعب « اعتياديا » مع الولد وتتعلم اصول الرياضة الحقة،وكانت الفكرة السائدة والمثالية ان تدفع المراهقة دفعا الى صفوف السيدات . ولكن « لى » صاح اطيلوا فترة الطفولة للبنت وقد قام بمساعدة زوجته فى تحرير البنات من العمل الممل والذى كن يقمن به فى المنزل من رعاية طفل الى اشغال المطبخ او العمل فى متجر العائلة أو المصنع.وقال: ان البنات محتاجات الى الرياضة،وقد قابلت بوسطن افكاره بالامتعاض ولكن البنات ذهبن للرياضة بأنواعها .

ولما كانت البلاد تعمل على انشاء الملاعب للاولاد تبنى « لى » انشاء الملاعب للكبار، وقال: ان الرجل لا يكف عن اللعب،وقد حصل « لى » على ما اراد .

ثم نقل مجهوده الى الريف،وكانت فكرته ان الاولاد فى الريف عندهم المساحة اللازمة للملاعب،ولكن كان ينقصهم التدريب والتنظيم وتعلم لعب جديدة.لكن اللعب لا يعنى تقوية العضلات فقط ولكنه يوسع مدارك العقل ويبرز العواطف ويعمقها وينميها .

واذ كان يجاهد من اجل الرياضة لم ينس ولم يهمل احتياجات الاطفال،وقد جاهد حتى أسست محاكم خاصة بالاطفال واصبحوا لا يحاكمون فى محاكم الجنايات العاديـة وكانت اول محكمة فى بوسطن .

ولم يقنع « لى » بعضوية لجنة كارفارد،وكانت مايتمناه كل رجل غنى،وقد اعتبرت العضوية شرفا يسعى الى الحصول عليه كل ذى مكانة.وقد خاض«لى»غمار معركة عنيفة ليحرر لجان المدارس من لجة السياسة،ومازال يحارب حتى حصلت المدارس على ابنية مناسبة وملاعب كافية.ثم فتح الملاعب للكبار للرياضة ليلا،وبعد ذلك جاهد حتى صدر القرار الذى يسمح باللعب والرياضة فى ايام الآحاد ـ وكان ذلك محرما من قبل ـ ثم ادخل الاشراف الطبى فى المدارس،ثم اسس التمريض التعاونى فى البيئة المدرسية والجيرة وكان يعلم حرج الطفل النابه وهو يدرس فى صف متأخر،وايضا حرج الطفل المتأخر او الناقص الذكاء وهو يجلس فى صف اعلى من مداركه.وعليه فقد حارب حتى أسست المدارس التى لا تسير على طريقة الصفوف المنظمة للاطفال المرضى والمتخلفين ثم اراد أن يكون للطفل معلم جيد يحسن عمله،وكان يريد المعلم الموهوب المدعو الى العمل ، ووجد ان جامعة هارفارد ليس بها كلية للمعلمين.فذهب الى الرئيس البرت رئيس جامعة هارفارد وطلب منه انشاء كلية للمعلمين . فقال له البرت : الفكرة عظيمة ولكن ليس لدينا المال اللازم لها ، فكان جواب" لى" ـ افتح الكلية فورا وسأدفع لك المرتبات،فكم هو المبلغ المطلوب؟« بعد ان حسب البرت قال له : خمسة وعشرون الف دولار مبدئيا »(ذهب لى الى مدير البنك الذى يتعامل معه وقال له : ـ قد وعدت البرت بخمسة وعشرين الف دولار وكان لا يعرف مقدار رصيده وسأل هل أملكها ؟)

وكان يملكها فدفعها لافتتاح مدرسة هارفارد للتعليم . (وكان « لى » يؤمن بالاستقامة فى العمل وبالقانون والنظام وبسبب هذا ولانه كان مقيدا فى جدول المحامين فى بوسطن ـ ولو انه لم يمارس المحاماة ـ خرج جوزيف لى يسعى للحصول على القوانين التى تدعم ما عمل ، فكان هذا عملا شاقا ، اذ كان عليه ان يقابل السياسيين ، ويقبل التعديلات والهزائم ويثابر على مطالبه عاما ، بعد عام . ولكن « لى » استطاع ان يحصل على نحو مائة قانون للتحسين الاجتماعى ، كما خنق فى نفس الوقت مثل هذا العدد من القوانين المعارضة للتقدم الاجتماعى) ، ولم يكن هناك قانون ضد هذا الامر،ثم سبق « لى » الزمن حين

طالب بعلاج مدمنى الخمور علاجا نفسانيا ، وعمل على منح العفـو ، ووقف التنفيـذ للمسجونين حسنى السلوك ، وكان ينادى بعلاج المجرمين لابعقابهم فقط .. كانت فكرته عن الحياة الاجتماعية هى « ترقية الحياة وليس مجرد حمل الموتى والمصابين » .

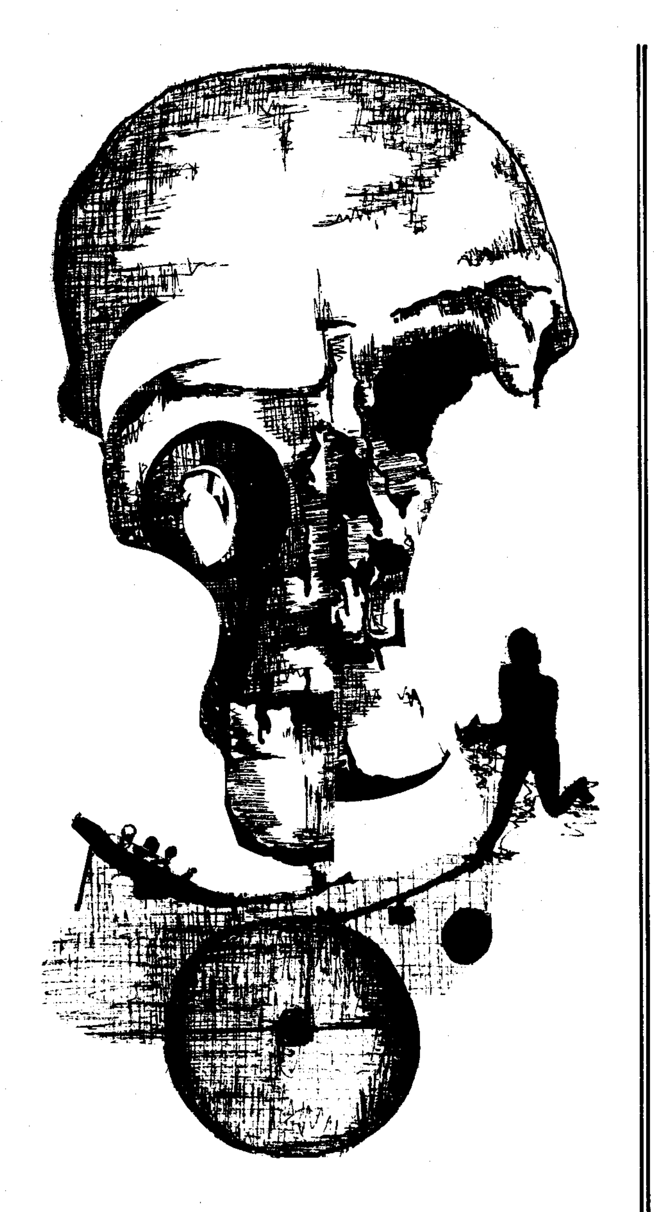
واذا قورنت ثروة « لى » بثروات غيره من أبناء بلدته،فانها لم تكن ثروة عظيمة ، ولكنه بذل منها كما بذل من ذات نفسه .

ولد « لى » فى السنة الثانية للحرب الاهلية الامريكية ، ووصل الى اوج شهرته خلال الحرب العالمية الأولى ، وفى سنتى ١٩١٧ ، و ١٩١٨م.كان لأمريكا ٢ مليون من الرجال تحت السلاح معظمهم فى معسكرات التدريب ، اوخلف الخطوط الأولى ، وكانوا رجالا من كل مسالك الحياة ، يشتركون فى الشباب ، وطبيعته الغريزية وهى اللعب . وقد قدر رجال البحرية والجيش الحاجة الى الرياضة المنظمة،وهذا لمنع الرجال من العـراك . والسـكر والجرى وراء المومسات ، ولذلك فقد عين جوزيف لى رئيسا لأعمال معسكر التدريب ، وقد برهن الرجل ان معرفته بقلوب الشبان لا تقل عن معرفته بقلوب الأطفال ، وفى نهاية الحرب قلد الميجر جنرال كلارنس ادواردس « الرجل الأصلع ذا العوينات » ميدالية الخدمة الممتازة .

من كلمات امرسون « ان كل مؤسسة هى ظل مؤسسها » ومؤسسة الرياضة الوطنية هى ظل جوزيف لى دون شك .

وكان « لى » رغم ثروته متواضعا ، يحتفظ باشيائه القديمة ، ويرتدى ملابس عتيقه ، ويدخل بها أعظم نوادى بوسطن،ولم يكن له من غرض الا مقابلة الذين يرجو منهم عونا لمشروعاته الرياضية . وقد استأجر منزلا بقرب الذين أحبهم ، وكان ينام على ظهره على الشرفة ، ويناقش أساتذة جامعة هارفارد ، ثم يقفز ليلعب لعبة مع أحفاده . وكان الرقص أحب رياضة اليه ، ومن كلماته:« ان المرء يمكنه ان يرقص فى اى عمر » .

وهكذا نرى ان جوزيف لى انتشر ظله على الملاعب فى جميع انحاء العالم ، وفيها ما يسعد جميع الاطفال .



كانت حرفته القتل

«كارل تيني»

كانت حرفته القتل
«كارل تيني»

أنا لا أعتقد أنني أحببت هيكتور ، لانه قتل خمسة وثلاثين شخصا . أحسب أني أحببته لذاته فقط .

وأنا أتكلم عن هيكتور منذ عدت الى أرض الوطن من الهند عام ١٩٤٥م . وكنت أحاول أن اوضح موقفه لحلقة متزايدة من الناس الذين لم يظهروا لباقة - بحركات حواجبهم - أو بتعليقاتهم وكان أكثر التعليقات تهذيبا هو قول بعضهم : - « ولم لا تبيع هذه القصة الى مجلة من المجلات ؟ » وكنت أريد أن أكتب إلى « ج أر جار هوفر » لأخبره أنه فى حالة دعوته لترتيب فرقة بوليس دولية أو ما يماثلها فعليه أن يدعو هيكتور للعمل فى صفوفه،وذلك لانه نصف أمريكى أولا ، ولأنه سيكون رجلا نافعا .

وكان هيكتور أحد القناصين فى الجيش البريطانى ، وقد طلب اليه القيام بعدة عمليات فى الحالات غير السارة التى سادت أخيرا ، وكان البريطانيون يسقطونه بالمظلة ، أو يضعونه على البر من قارب وراء خطوط الأعداء ، وكانت مهمته مباشرة لا تحتاج الى تشعب فى التفكير ، وكان عليه أن يجد الرجل المطلوب ثم يقتله .... ولا يوجد شىء معقد فى هذه العملية ، - من وجهة نظر هيكتور على الاقل - وهو واحد من اثنى عشر من القتلة المحترفين الذين كانوا يعملون بهدوء حول العالم ، عاملين على ازاحة شخصيات مهمة من رجال المحور .

وعندما تقابلنا فى محطة هوارث فى كلكتا سنة ١٩٤٤م.كانت عنده عمليتان .

كان هيكتور بريطانياً برتبة كولونيل . قصير القامة ، سمينا أصلع ، وله وجه يشبه وجه البومة ، ويرتفق نظارات ذات إطار سميك ، ومن يراه يظن أنه كاتب حسابات ، وليس جنديا مهنته القتل . ولكن اليد التى مدها ليصافحنى كانت قد وضعت حدا لحياة خمسة وثلاثين رجلا من اليابانيين والالمان .

وبالطبع ، لم أكن أعرف عنه كل هذا ، أو شيئا منه عندما لقيته وكان اسمه الذى عرف فيا بعد ، ولم يعد سرا حربيا هو (جرانت تيلور) ... كان رجلا متحفظا ، وكان علىّ أن أعرفه لمدة ستة شهور ثم استحوذ عليه فى الفندق الشرقى الكبير فى كلكتا ، وأن أسكره الى أن يبوح لى بقصته . ولا شك أنه لم يكن يعرف أنى فى كل مرة ، ذهبت فيها الى الحمام كنت أدون بعض النقاط ... بل كنت أدون نفس جملته التى أجاب بها على أسئلتى .

ـ وبخصوص العملية التى قمت بها فى غرفة الفندق فى فرنسا ، حين كانت ألمانيا تمثلها .

ـ كم ضابطا ألمانيا كان فى الغرفة عندما فتحت الباب ؟

ـ ســـتة .

ـ كانوا يقيمون حفلة . وعندما فتحت الباب حسبوك النادل . ولابد أنك كنت تحمل مسدسا فى يدك .

ـ واحد فى كل يد .

ـ هل كنت وحيدا ؟

ـ وحيدا بالطبع ، ولكن فى الصالة كان لى رجل يحمى ظهرى .

ـ وماذا فعل النجوم الألمان الستة ؟ لقد كانوا نجوما أليس كذلك ؟

ـ نعم . ثلاثة منهم جمدهم الخوف . وبدا كأن اثنين منهم على وشك الاغماء وواحدا بدأ يسب ويلعن .

ـ وأطلقت النار من عتبة الباب ؟

ـ لا . لا . لا . دخلت الى الحجرة معهم .

ـ وعلى أيهم أطلقت النار أولا ؟

ـ الذى تحرك منهم لأن الذين جمدهم الخوف لم يكونوا خطرين .

وهم يقتلون بعد الآخرين ... واستغرقت عملية الدخـول ، وضرب النـار وتفتيش جيوب الضحايا ، وأخذ الأوراق التى بها،ثم الخروج.وأنا أمشى ـ لا أرقص ـ استغرق كل هذا ٢٠ ثانية .

ـ إذن فكل شىء سار سيرا حسنا فى هذه المهمة ؟

ـ كلا .

ـ ماذا كان هناك من خطأ ؟
ـ كان فى الغرفة سيدتان فرنسيتان .
ـ هل قتلتهما ؟
ـ كلا.ولكن مساعدى دخل من الصالة وقتلهما . وقد وبخنى رؤسائى بشدة وصرامة حين عدت الى إنكلترا ... لان التعليمات تقضى بأننا عندما نقوم بمثل هذه المهمة فيجب ألا نترك شهودا أحياء لأنهم قد يعطون أوصافنا .
ـ واذا أديت هذه المهمة مرة أخرى ، هل كنت تقتل السيدتين ؟
وتوقف برهة وأجاب :
ـ كلا .
ـ وكان الكولونيل متزوجا ، ولم يكن له أطفال ، ولما عاد الى إنجلترا كنت أتساءل عما اذا كانت زوجته تعرف عن عمليات القتل التى قام بها ، وعن شعورها وبصفتها سيدة متمدينة .
ـ اذا كان هناك شعور ـ وهى تعايش قاتلاً ـ قتل خمسة وثلاثين رجلا ـ فى فراش الزوجية ، وقد استعمل فى قتل الألمان الستة مسدسا من ماركة كولت ٤٥ . كان يحمله فى يد ومسدسا ماركة فيبلى رقم ٦ فى الأخرى ولكنه كان يقوم بكل مأمورية بالمدفع الرشاش .
واذ كنت أعمل مع هيكتور يوما بعد يوم فقد أصبح من الضرورى أن تزداد معرفتنا الواحد بالآخر ، وكان هيكتور يدرب الأمريكيين على القتال فى المواقف الحرجة . يحاضرنا ويعطينا برامج معدة ، ولم يكتف بالقول فقط ، ولكنه كان يقف ، ويرينا كيف نصنع ما قاله لنا : وقد رأيته يطلق النار بطريقة تستحسن احترام حتى أهالى أو كلاهوما .
وأجاب على سؤالى مرة:« أين تعلمت اطلاق النار ؟ » أجاب منكم أيها الامريكان ... ان جدى مدفون فى أمريكا،وتعلمت استعمال المسدس من رعاة البقر فى فونتانا . وقد عشت ، ولعدة سنوات فى شيكاغو .
ـ بصفة رسمية ؟
ـ نعم . كنت ضيفا على الشرطة الامريكية ، ولكننى تعلمت الكثير من رجال العصابات .
وكتبت مجلة الريدرز ديجست فى عدد نوفمبر ١٩٤٣م . مقالا عن هيكتور عنوانه « القتل صناعته » وكان الكاتب فريدريك سوندرن الفير ، قد التقى به مصادفة فى فندق

فى القاهرة ، وقد أعلن كيف ان معيشة هيكتور فى شيكاغو بين رجال العصابات علمته طرقا ساعدت البريطانيين على تحسين طرق الاغارة التى قام بها رجال الكوماندوز. وعندما كنت أقدم الكولونيل الى الجنود فى الهند ، لم أكن احتاج الى أكثر من ان أذكر علاقته بالعصابات والكوماندوز. حقا كان القتل صناعة هيكتور ، وكان هيكتور صناعتى ، وقد كانت علاقته مع القائد تشيفزأسرية ، وكان عملى مع هيكتور هو أن أعد له مهماته ومنها كومة مرتبة من اكياس الرمل ليطلق فيها النار ثم اعد اللازم لتمثيل عملية التدريب .

وكان هناك موضع فى الشرح كان يجب ان يشير فيه الى معدتى مصوبا اليها مدفعا كان قد اطلقه للتو ، وكان يقول لى ـ لا تنزعج فأنا دائما اخرج الرصاص من خزنة المدفع قبل تصويبه اليك .

وكانت تمثيلية بديعة . وكما كان تأثيرها على رجال الخدمة السرية الامريكان عظيما .. وقد أسرتهم الفكرة حين رأوا احد مجندى الصحف يسقط قتيلا على المسرح . ولكن الفكرة لم تثر اعجابى قط لذلك فقد افلحت اخيرا فى اقناع هيكتور فى اخراجها من اللعبة .

واظن ان الذى شجعنى على هذا هو اكتشاف ان هيكتور يحب الكونياك ، وقد عرفت رجالا يجيدون التصويب بعد تناول عدة كؤوس من الكونياك ، او حتى بعد تناول خمر ، او كليهما.ولكنى لم أر شخصا قبل هيكتور يستطيع اصابة الهدف بعد احتساء عشرة كؤوس من الكونياك . ولما اقترحت عليه ـ عرضا ـ الاّ يشرب عندما يكون فى سبيله الى استعمال الاسلحة النارية ، ضحك هازئا ، وقال:« الخمر ؟ » لم اعرف ابدا ان الخمر أفسدته طلقة جيدة . ولو كانت تفعل هذا لكنت فى عداد الاموات من مدة طويلة .

ويوما بعد يوم ، وليلة بعد ليلة ، كان يعلم الامريكيين كيف يتخلصون من يابانى ، ولم يكن يذكر الالمان أبدا ، والحقيقة انه كان يعتقد ان الحرب مع المانيا ما هى الا اشاعة الغرض منها ارسال كميات اكثر من البيرة الينا ، وكان يقول لنا : اطلق من حظ البطل ، وكانت نظارته سميكة الاطار بارزة على أنفه الاحمر الصغير ثم يضيف الكوع امام البطن . هذه هى طريقة تكساس ، ولا يمكن ان تخطىء .

ولم تكن طريقة تكساس ، ولا حتى طريقة هوليود فى اوبرا الخيل . ولكنها كانت طريقة ناجحة مع هيكتور على الاقل .

ولم أعاشر فى الواقع قاتلا معاشرة عن قرب كما عاشرت هيكتور . وفى ركوبنا معا من والى فصول الدراسة كنت احاول ان اعرف ما اذا كان هيكتور يتمتع بما يعمل ـ ولا اقصد عمله فى التعليم والتدريب ـ فإن هذا كان مجرد مبرر للبقاء فى الفندق الشرقى الكبير عدة أسابيع ، الى أن تحين أوقات العمليات التى يكلف بها . وأيضا ليشرب كل الكونياك التى فى المخزن ، فإذا نفد هذا كله كان يذهب ثانية الى الميدان ، وكأنه يعطى الفرصة لوصول شحنة أخرى. إنّما الذى أقصد أن أعرفه هو ـ هل يتمتع بعملية « القتل » ؟

ولذلك سألته مرة : ماذا يحصل عندما تقتل يابانيا ، أو المانيا وهو على بعد ذراع منك ؟ نعم ماذا يحصل ؟ ثم قل لى هل يتصبب العرق من راحتيك اذا جد الجد ؟

وأجاب هيكتور بصوت هادىء : لا . ليس لدى أيد يتصبب منها العرق . ثم نظر الىّ نظرة فاحصة من وراء نظارته الكبيرة ومن فوق أنفه . « وسأل » ماذا تريد على التحديد ؟ وأردف :

تتملكك رغبة عارمة فى أن تعرف ما اذا كان القتل سهلا . حسنا سأجيب سؤالك ولا تسألنى مرة أخرى ... كلا ليس القتل سهلا ... خصوصا حينما يكون العدو على بعد ذراع منك . وان قتل العدو من مسافة طويلة بمدفع أو بندقية ليس الا عملا روتينيا . ولكن حين يكون القتل فى حيز ضيق فأنت تقتل على مسافة التخاطب،ثم عليك ان تركله فى وجهه اذا كانت العملية لم تتم ... ثم عليك ان تنساه ... نعم تنساه . وقد تسمى هذا تحجر قلب الجزار،وقد تسميه المثل الاعلى للوطنى المخلص،ولكنه على أى حال عمل يجب أن يكمل .

وفى ١٩٤١م.اكتشف البريطانيون بفضل تعاون الجيش السرى فى النرويج أنه سيعقد اجتماع من الكويسلنجين ـ اتباع كويسلنج النرويجى الذى تعاون مع الالمان ـ فى قرية فى النرويج فى يوم محدد .

وفى انجلترا رقص رجال الفرقة التى يتبعها هيكتور فرحا لتلك الامكانيات العجيبة ـ تصور ـ اثنى عشر رجلا من أتباع كويسلنج سيجتمعون ولو للحظات قليلة تحت سقف واحد . فما أحسن أن يمحى الكل من الوجود فى وقت واحد .

وكانت هناك عقبات بالطبع.لانه وقبل كل شىء فقد كان هؤلاء سيجتمعون فى النرويج.وليس فى انجلترا ـ وكان هناك معسكر نازى بالقرب منهم .

وتم ترتيب الغارة . وكان هيكتور هو المسؤول عن التجهيزات،وكان عدد المتطوعين من المحاربين البريطانيين أكثر من العدد المطلوب،وكانت الرحلة من أخطر رحلات التسلل التى قام بها البريطانيون ... وقد استبعد رجل من القائمة لانه كان مصابا بسعلة عصبية ، كان يخشى ان تهاجمه فى لحظة خطيرة . واستبعد به آخر لانه كان اذا أثير يأخذ فى الركض، والمرء لا يؤدى هذه المهمات وهو يركض .

وكان هيكتور يقول لى:يجب أن تسير ببطء على أن تكون ـ فى نفس الوقت ـ متعجلا ، واستبعد ثالث لانه كان يرفع كعبيه عن الأرض عند إطلاق النار،وهذا قد يجعله يخطىء الهدف .

وفى النهاية نزل ستة رجال من البريطانيين والنرويجيين على شاطىء النرويج وقد تسللوا الى القرية بنجاح ، ولمدة أربعة عشر يوما اشتغلوا بالاستعداد الذى كان يشمل الحصول على مساعدة محلية يعتمد عليها .

وذات مساء وبعد العشاء ، كان الكويسلنجيون مجتمعين يشربون القهوة،وكان الاجتماع فى حجرة ذات نوافذ فرنسية وفتح هيكتور ورجاله النوافذ باصابع مدربة لا تصدر صوتا ثم دخلوا وواجهوا طلبتهم .

وكان رد الفعل عند النازيين مختلفا اذ جلس بعضهم ، وكأنما أصابهم الشلل،وقفز آخرون عن كراسيهم ، ومد آخرون أيديهم لاشهار مسدساتهم ، ولكن لم يعش منهم أحد .

وبلهجة تشبه لهجة نائب المدير،وهو ينهى اجتماع حملة الأسهم قال هيكتور : « قد تمت العملية بنجاح . وقد حصلنا على مستندات ذات اهمية » سبق أن قلت : إنى أسكرت هيكتور للحصول على قصته كلها . ولكن هذا ليس كل ما هناك . لانى حقنته بالكونياك وربما حللت عقدة لسانه ، ولكن أحدا لم يستطع أن يسكر هيكتور ، وهو الذى بدأ يشرب البيرة ظهرا وهو فى الثانية عشرة من عمره ، والنبيذ على العشاء،وكان فى كل حياته يشرب باعتدال،ولكن هذا لم يؤثر على مهارته فى ضرب النار .

وقد احتج مرة قائلا : « انى لا أسكر وأنا لا أسرف فى الشرب سواء كانت بيدى عملية أو لم يكن » وسألته مرة اذا كان يعتقد فى الخرافات ؟ فسألنى ماذا تعنى بقولك:

تعتقد فى الخرافات ؟ بالطبع لا . اذن ماذا تصنع بعظمة الفرخة التى فى جيب صدارك ؟ وكنت لاحظتها مرة وهو يغير بدلته فى غرفة الفندق .

فدمدم قائلا : « ما لا بد أن أتوقعه،لأنى سمحت لك بالدخول فى غرفتى .

وقلت له : « ايه دعك من هذا،وأفرغ جيوبك ربما تحمل أيضا رجل أرنب .

وقد أطاع وأفرغ جيب صداره ، وكان به ليس عظمة فرخة واحدة بل خمس عظمات .

وقال هيكتور : إنى لا أخجل من هذا ، وإنى أعتقد أن كل الرجال ذوى المهن الخطرة يتعلقون ببعض الخرافات ، وبعضها سخيف وفيه كثير من العبط ، ولكن خرافاتى ليست كذلك . فأنا أكره المخاطرة وعليه وبما أنى مغرم بالدجاج فانى أحتفظ بعظمة الرجل اليمنى هذه جلباً للحظ . وأنا لا ألقى قبعتى على الفراش ولا أصفر فى مخدع سيدة ، وانى لألقى علما على كتفى فى بعض المناسبات . وقد صلبت أصابعى فى بعض المواقف الحرجة وأكثر من هذا فإنى أقول لرجالى وأنا أعطيهم مهامهم ... حتى ولو كان الرجال يعملون عملا تاما كاملا ، وأن القيادة أحسن من المستوى اللازم،لكن يجب أن يحتفظ الانسان باصبعه وسبابته على طرف رداء « الهة الحظ » .

وبالاشارة الى تلك المهمات أحببت أن أعرف شخصا ممن صاحبوا هيكتور فى إحداها . ثم هل كان هيكتور مجرد رجل محظوظ أم أنه كان ما هو ؟ وهل بالغ أم لم يبالغ ؟ وهل كان فى الحقيقة متواضعا وهو يروى قصص مغامراته ؟

وذات ليلة رأيت جاويشا من رجال تلال الكاميرون ـ جنود اسكتلاندا ـ وكان يحوم حول الكولونيل ، وهو يعطى الدرس . وبعد أن حملنا أكياس الرمل فى السيارة سألت الجاويش اذا كان قد صاحب هيكتور فى إحدى مغامراته .

ـ فقال : فى عدة مغامرات .

ـ هل هو هادىء الاعصاب وقت الغارة ؟

ـ هادىء الاعصاب ذات ليلة ، وفى إحدى غاراتنا سمعنا ألمانيين يتكلمان خلف ناصية أحد الابنية وكانت الاوامر لمثل هذه الحالات تدرس مقدما ، ثم تراجع ، وهمس الكولونيل ، قف ثابتا . وفعلنا . ودلف الكولونيل وانعطف قبلنا حول ناصية البناء ومرت دقيقة ثم سمعنا صوت طلقتين ، وبسرعة انعطفنا لنرى ما اذا كان أصاب الكولونيل شىء . وهناك وجدنا الألمانيين صريعين على الارض . وكانا ... أموت من الموت . أما الكولونيل فكان يشعل غليونه .

وكان اسم الجاويش أندى،ولم أره بعد ذلك.ولكنى علمت من مصدر مسؤول أنه كان فى غارة مع الكولونيل واستقبل بحسرة الجزء الأكبر من قنبلة يدوية يابانية،وقد يئس الأطباء من إنقاذه.ومع ذلك فقد عاش ورجع الى أسكتلاندا بذراع يمنى مصنوعة من البلاستيك .

وقلما أشار الكولونيل الى عمليات اطلاق النار التى قام بها بطريقة مباشرة . وفى العادة يتكلم عنها خلال الحوار عن أمر آخر . وكان يذكرها ليقدم برهانا على نقطة من النقاط . وكان يؤمن أن أحسن المسدسات والمدافع الرشاشة الصغيرة هى المصنوعة فى الولايات المتحدة .

وليبرهن على أن المدفع البريطانى كان رديئا ، ذكر أمرا شاهده فى المعركة الثالثة التى وقعت على رأس الجسر « كوجيادل كولى » فى جنوب إيطاليا ، فقال : « لقد رأيت الأمر بنفسى » . كان مع جاويشين بريطانيين أحد تلك المدافع اذ عصلج واحد منهما ، وقبل أن يقوما بإصلاحه قتلهما الجندى الألمانى .

وذات يوم لاحظت أن لدى هيكتور فى محفوظاته مدفعا المانيا ، وسألته من أين حصل عليه ؟ فقال : من الجندى الذى قتل الجاويشين البريطانيين .

وسألت أندى مرة:« ما هى أطول مسافة أصاب منها هيكتور رجلا ؟

فأجاب : لا أعرف . ولكننى رأيته مرة يطلق مسدسا وقتل هاربا على بعد ثلاثين ياردة .

- « وكم مرة أطلق النار قبل أن يقتله ؟ »

- « مرة واحدة »

- إنه ليبدو أمرا غريبا ألا يخطىء أبدا ؟

وضحك أندى قائلا : لا.ولهذا السبب فإنى أجتهد فى أن أؤمر للخروج معه فى مهمته القادمة .

ومن فلسفة هيكتور أن رصاصة واحدة ، تكفى لايقاف خصم يهاجمك . خصوصا أولئك اليابانيين المتعصبين فإن رصاصة واحدة قد تترك الرجل ، وبه حيوية كافية للضغط على الزناد ، وإصابتك،أعطه رصاصتين .

واذا راقبت هذا الرجل وهو يطلق رصاص مدفعه الرشاش - وقت التدريب - لخيل اليك أنه يقرأ شعرا ... كان يلمس الزناد بخفة الفراشة ويطلق رصاصة ، رصاصة ثم

يقول : « إنك توفر الذخيرة ـ بهذه الطريقة ـ وتترك لنفسك بعض الطلقات التى قد تحتاج اليها فى إزاحة مفاجئة « ثم كان يمر بيده برفق على المدفع ويقول : إن هذا ليس مدفعا إنه آلة موسيقية إنه ـ « بيانو » معزف شيكاغو دق عليه ». ويظهر أن هيكتور أجاد اللهجة العامية فى أمريكا حين كان هناك فى شيكاغو،فكانت هذه اللهجة الامريكانية تجرى على لسانه الانكليزى بسرعة وسهولة ، ولكن لكنته الانكليزية جعلت الكلمات تبدو غريبة فكان وكما قال مارك توين : « كانت عنده الكلمات ولكن ينقصه النغم »

وقد تعلم هيكتور أشياء كثيرة فى أمريكا تعلم مثلا:ان رجل الشرطة أو الجندى الذى يقابل عدوا عن قرب ثم يتردد ويصوب سلاحه إن هو الا « حمامة مقتولة » . لأن فى هذا تبديدا للوقت ، أو بمجرد أن يرى الشرطى عدوه فإن عليه أن يطلق النار فورا . والرجل الذى يخرج من المعركة حيا هو الذى يطلق النار ... بالشعور « وليس الرجل الذى يبدد الوقت فى إجادة التصويب » واذا انحنيت نوعا ما ووضعت قدما أمام الأخرى ووضعت ذراعك على حوالى ست أو ثمانى بوصات أمام السرة فلا سبيل الى أن تخطىء الهدف .

ـ وهل هذا كل ما فى الامر ؟

ـ كلا يجب أن تكون لك دراية ومهارة . مثلا:داخل البار العمومى ، أو مكان تدخين الأفيون ، أو المأخور ، أو قبو شرب النبيذ ، أو صالة الرقص . كل هذه يجب أن تنطبع صورتها فى مخك فى جزء فقط من الثانية حال دخولك المكان ، ويجب أن تتأكد من أنه لا يوجد ما يسمى مفاجأة متبادلة ، إن خصمك هو الذى يجب أن يفاجأ وليس أنت .

وعرفت عادة هيكتور فى أنه يكون دائما المفاجىء لعدوه حين أجابنى على سؤال كنت سألته أياه عن « السيدة الفضية » التى لازمته فى أسفاره كلها . والسيدة الفضية هذه لم تكن سيدة فى الواقع ، ولكنها كانت مسدسا صنع خصيصا على قياس يده .

كنت أداعب هذا المسدس ذات مرة حين قال لى هيكتور : « خذ حذرك إن السيدة عشيقتى » .

ككل العشيقات اللاتى على شاكلتها كانت خطيرة حين تكون معمرة ... وكان هيكتور يعمرها بذخيرة خاصة مميتة ، وكان ظرف الطلقة من معدن خاص،له قوة خاصة لايقاف الهدف . وكانت يدها من الصدف ، وكل جسمها كان لامعا .

وسألته : هل حمل هذا المسدس فأموك فى الميدان ؟ « وكنا نحن الجنود نعلم أن الاشياء اللامعة فى الميدان خطر ، لانها تلفت نظر الأعداء الى هدفهم ». فأجابنى هيكتور بكبرياء : لا اعتراض عليها ، لانك تعلم أن ما يقوله حقيقى ودقيق ... أجابنى قائلا : يا صديقى حين يرى الهدف المطلوب هذا السلاح يكون قد فات الأوان ولن يسعه عمل شيء .

وفى بعض العمليات كان هيكتور حين لا يستطيع استعمال المسدس فإنه يستعمل السكين عوضا عنه .

وقال لى مرة : « لا يوجد دفاع ضد السكين،واذا كانت هجمة مفاجئة ولم يكن معك مسدس » وهذا الحديث وحين تكون عينا هيكتور مسددتين اليك وهو يمر يده على موسى حادة لابد وأنه يثير فيك شيئا ... احساسا غريبا .

وسألته مرة:هل حمدت الله يوما لانك كنت تحمل سكينا ؟

فأجاب : « حقا . حقا . » ثم حدثنى عن العملية التى طلب منه فيها التخلص من جاسوس فى بلد محايد ، وهو تركيا وكان هذا العميل قد حصل على عمل على خط حديدى فى تركيا،وكان الخط مستعملا فى نقل معدات حربية بريطانية مهمة .

وكان يحصل شيء ما لحمولة العربة بعد العربة من المهمات،وكانت إما أن ترسل الى خط آخر أو تتعطل.وأحيانا كانت تفقد كلية . واكتشف رجال مقاومة الجاسوسية « الذبابة التى فى العسل » وطلب من هيكتور أن يزيل العميل من الطريق .

وسألته : وهل كان معك من يساعدك ؟

ـ نعم رجلان قضيا مدة العقوبة فى السجن من اجل جناية قتل .

ولما ألححت عليه ليخبرنى عن تفاصيل المسألة قال:« وصلنا الى الموقع وبدأ عمل التجهيزات » .

ـ مثلا :

حسنا أول عمل قمنا به هو حفر قبر للعميل الالمانى .

وحصل هذا فى منطقة مشجرة قرب محطة السكة الحديد التى يشتغل فيها العميل ، وبعد ذلك ومن المكان الذى اختبأوا فيه رأى هيكتور ومساعداه تحركات العميل .

وعند هذه النقطة حذر هيكتور .

اياك اياك ان تكون عوائد محدودة منظمة إذا كنت ممن يقومون بعمل خطر . وكان الألماني وقد ارتكب الغلطة فى انه كان يقوم ـ من اجل صحته ـ وبانتظام بالمشى قبيل الغروب لمسافة،ولسوء حظه كان طريق مشيه بالقرب من المكان الذى اختبأنا فيـه فى الغابة .

ـ ثم الى القبر الذى حفرتموه له ؟

ـ نعم.وقد دفناه وغطينا المكان باوراق الشجر. ومنذ ذلك الوقت لم تحصـل أيـة صعوبات للبضائع والمهمات فى المنطقة .

وقد حصل هيكتور على تعليم جيد فى انكلترا،وكان يستطيـع ان يردد من أقـوال شكسبير واشعار كيبلنج العسكرية،وكان يتكلم عدا الانكليزية العربية والاوردو. ولعل فى هذا ما يعتبر عزاء بشكل ما للخمسة والثلاثين المانيا ويابانيا الذين محاهم من الوجود .

ورغم تجاوزه الخمسين فقد كان أقوى من رأيت،ولما كان الامريكيون والجنود الآخرون ينامون تحت الكلة لاتقاء شر البعوض تحدى هيكتور الملاريا .

كان ينام دون الكلة قائلا: إن الحشرات لا تحبنى وقد عشت فى الخنادق والصحارى والمستنقعات والغابات،ولم يصبنى شيء حتى ولا الزكام العادى .

وإنى لاشعر بفخر حقيقى لأن هيكتور كان يحبنى . وكان يذهب من وراء ظهرى ويحارب من أجلى .

صدقنى ان الجندى البسيط فى هذه الحرب كانت له معارك يجب ان يخوضها،وقد كان يحب صورة زوجى واطفالى الأربعة التى كنت أحملها فى جيبى ... طلب منى عدة مرات ان ينظر اليها . وطلب منى فى حالة استطاعته الذهاب الى أمريكا ـ بعد الحرب أن يزورنى وقال : يمكنك ان تطلب من ابنى تينى الصغير « أن ينادينى العم هيكتور » وقلت له:انه يمكن ترتيب هذا .

ولكنى لم أسمع عنه منذ انتهاء الحرب،فهناك اشاعة ـ لم تؤيد ـ أنه كان فى طائرة بريطانية تحطمت فى مضيق « ملقا » ولم ينج من ركابها أحد .

ولكنى لا أصدق هذه الاشاعة . وإنى لانتظر اننى سأجده ذات يوم واقفا على باب بيتى . وعليه مظهر رجل الدرس،والاطلاع حتى يحسب الجيران أن زائرى هو أحد باعة الكتب عوضا عن ذلك القاتل المحترف .



لسان من نار

لسان من نار

يعرف كل أمريكى سبع كلمات قالها « باتريك هنرى » . ولكن الذين يعرفون ما فعله باتريك فى سبيل الحرية قليلون .

كان هذا الرجل هو رأس الحربة التى فتحت الطريق أمام الابطال الذين حاربوا بضراوة من أجل الحرية . ولم يلق امريكى آخر ما لقيه « باتريك » من التقدير والحب .

ولقد كان من السهل جدا أن يصبح ديكتاتورا ولكنه كان ينفر من الفكرة نفور السليم من المجذوم .. وكان يفضل الموت على التحكم .

وكان باتريك هنرى يقدر حرية مواطنيه كما يقدر حريته . وبدأ "باتريك" نضاله فى سبيل الحرية ، كما بدأها أمثاله ، بالمطالبة باعطاء المستعمرات حقوق الرجل الانكليزى . وبينما كان الكثيرون يفضلون أن يعطوا اقطاعية تزيد مساحة ما يملكون من الارض ، كان "باتريك" يمد بصره ليحتضن أمريكا كلها ، لانه أحس أنه أمريكى .. كبر ونما مع البلاد التى نمت بدورها ، وأخذت ملامحها كوطن كبير ، وكأمة لها خصائصها ومقومات كيانها . ولذلك فقد أدار ظهره الى البحر ، وانطلق فى اتجاه المستقبل البعيد .

والواقع ان "باتريك" لم يحتفظ بصفات الرجل الانجليزى . كانت خصائص الامريكى المناضل أبرز صفاته ، وقد آمن بقدرة الانسان على أن يرتفع ، ويتفوق ... وذلك لأنه كان ممن صنعوا انفسهم فى الوطن الجديد . وإن كانت دماؤه فى الاصل ـ كجميع الامريكيين ـ قد جاءت من بلاد وراء المحيط .

وكأكثر العظماء ، لم ينجح فى الكثير من الاعمال التى مارسها . واستمر حاله هكذا الى ان ظهرت عبقريته فيما بعد ، واعترفت بها الجماهير .

أعد محلا تجاريا وخسر، ولكنه كان سعيد الحظ فى الحب فقد تزوج وهو فى الثامنة عشرة عروسا جاءته بمزرعة رملية، ولكن سرعان ما خانه الحظ فى الزراعة ، فرجع الى التجارة ليفشل مرة أخرى .

ولما بلغ الثالثة والعشرين كان له أربعة أطفال وجبل من الديون ولم يكن قد استطاع ان يتقن اى عمل ، ولكن كان له آلاف الاصدقاء .

ومع ذلك فقد بقى له الكثير ، ذاكرة نشطة ومنطق سليم ، واجابات ملهمة. ثم كان بطيء الغضب مع قدرة لا توصف على المناظرة، والاقناع باسلوب رائع من الادب واللياقة وعفة اللسان .

كان "باتريك" يختلف عن جميع العباقرة ، فى أنه كان يعرف كيف يفكر سواد الناس، ولعل هذا هو السر فى انهم كانوا يفهمون كلامه البسيط . وفى انه كان يستطيع اثارتهم كما تثير العواصف امواج البحر .

كانت هذه المواهب تشير بوضوح الى المهنة التى يمكن ان يتفوق فيها "باتريك" ! وقد سطعت فكرة دراسة القانون فى ذهن الشاب الفقير ... ولكن كيف ؟ وهو دون مال ولا وقت فراغ ... كيف يمكنه ان يدرس القانون .؟

واقترض مختصرا للقانون ومختصرا آخر لقوانين فرجينيا . وبعد أن اختزنها خلال ستة أسابيع تحت فروة رأسه الحمراء انطلق مرتديا بدلته المهلهلة !! .. الى عاصمة المستعمرة وهى وليامسبرج، وقدم نفسه للسادة الممتحنين ، طالبا ان يسمح له بممارسة القانون، وسرعان ما تبينوا قلة معلوماته ، ولكنهم رأوا أنه لا يخطىء منطق العدالة والحق . ويتمتع بتفكير منسق سليم ... رأوا أمامهم محاميا موهوبا . ولد ليكون محاميا ... وإن لم يكن واسع الاطلاع، ولذلك فقد هزوا رؤوسهم قليلا ، ثم وافقوا على طلبه .

وعاد الى بلدته ليمارس المحاماة ، فالتهم الكثير من المصادر والمراجع فى القانون . وخلال ثلاث سنوات استطاع ان يتولى الدفاع فى ١١٨٥ قضية كسب معظمها .

ثم أتت محاكمة « بارسون » العظيمة .

كانت سمعة رجال كنيسة انجلترا ، تتمرغ فى أوحال فرجينيا ، وقد تدهورت الى الحضيض نتيجة للخلاعة والضجر والطمع فى جمع الضرائب ، وكانوا يحصلون عليها فى

شكل كميات من التبغ ـ وقد أرادوا تعديل الكمية لتتناسب مع سعر السوق المتقلب ، وكانوا هم دائما وراء تقلب السوق .

وقد قدموا قضية كتجربة فى محكمة هانوفر .

وكان القاضى هو والد باتريك الصغير ولا أحد غيره . وقد حكم لصالح رجال الكنيسة .

وكان هنرى الصغير هو المحامى الذى بدا أنه يتولى الدفاع عن قضية لا رجاء فيها .. ولم يبق امام المحلفين الا ان يحددوا المبلغ الذى يجب دفعه لرجال الكنيسة ، وقد تجمعوا ببرود ، وجلسوا على مقاعد المحكمة ، ليتلذذوا بلحظة النصر الحاسمة .

ولكنهم هربوا من المحكمة بعد ساعة من دفاع هنرى،وآذانهم تطن ، ووجوههم تتلظى لان أعظم محام فى عصره قد سلخ جلودهم وهم أحياء ، وبينما كانت المحكمة تجاهد لتلتقط انفاسها ، فضح هنرى قوانين رجال الكنيسة ، وقال:انهم يمثلون الجور على حقوق رجال فرجينيا الاحرار،والاعتداء يحميه التاج البريطانى .

وكانت النتيجة أن منح المحلفون رجال الكنيسة ٤ مليمات ... وحمل الجمهور هنرى الى خارج قاعة المحكمة ... على الاعناق !!!

وفى السنة التالية انتخب باتريك عضوا فى مجلس بيرجس ، وهو المجلس الادنى للمشرعين فى مستعمرة فرجينيا . وكان هنرى الصغير (كما يسمونه تمييزا عن أبيه) قد أمضى تسعة أيام على مقعده حين وصلت نسخ من قانون الدمغة من البرلمان البريطانى . وهو قانون يقضى بأن توضع دمغة ذات قيم مرتفعة على كل الاوراق الرسمية فى المستعمرات، وكذلك على الجرائد،والكراسات والدليل السنوى ، وكانت حصيلة هذه الضريبة ستنفق على تقوية وحماية الحدود فى الهند .

وصاح هنرى:(ان القانون مخالف للمجاحنا كارتا التى تمنع فرض ضرائب على الناس دون موافقتهم) .

ثم هتف:(إن الأحرار من البشر لا يمكن أن تتمكن منهم قوانين ، لم يؤخذ فيها رأيهم) . ثم أعلن « أن المجلس التشريعى فى فرجينيا مستقل عن البرلمان والتاج » .

وكان توماس جيفرسون يتكىء على الباب وهو يصغى مأخوذا بالمنطق المتدفق كالطوفان فى بلاغة كالـ .... وكان يجلس فى المكان شاب يفكر فى صمت ، هو العضو

جورج واشنطن ، الذى عرف عنه أنه قال : (لن يسمع عنه أنه تكلم عن الخيالات الجامحة عن الاستقلال) ولابد أن واشنطن قد فعل وهو يسمع هنرى باتريك يصيح : (كان لقيصر بروتس وكان لشارلس الاول كروميل ولجورج الثالث ...) وصمت باتريك .

وارتفعت هتافات من أركان كثيرة فى المجلس تقول : (خيانة ... خيانة) فاذا بباتريك يلقى قنبلته قائلا:(اذا كانت هذه خيانة ... فلنستفد منها الى أبعد حد ...)

وقد اقر المجلس قرارات هنرى وسط عاصفة مدوية من الهتاف والتصفيق ...

وفى اليوم التالى محا الحاكم كل ما جاء فى محضر الجلسة،ولكنه لم يمكن من هذا قبل ان تؤخذ نسخ المحضر وترسل الى الوطنيين على طول الطريق من تشارلستون الى بوسطن . وكانت النسخ تمر سرا ، وبسرعة ، من يد الى يد ، كانت تنتقل وكأنها النار فى الظلام ، تحرق لتضىء طريق الأمل .

وألغى الحاكم البريطانى قانون الدمغة ، وحرمت بريطانيا حصيلة تقوى بها مركزها فى الهند ...

ولما اجتمع المجلس مرة ثانية كان هنرى قد صار اكثر نفوذا من الحاكم البريطانى وأخذ يقود جميع معارك النضال ... ولم تكن هناك معركة اقسى ولا أمر من معركة قوانين ناونسند ، وأولها صدر بتأجيل المجلس التشريعى لولاية نيويورك لانه لم ينفذ قانون الاسكان . وكان الغرض منه ان تتحمل المستعمرات نفقات الجنود البريطانيين المعسكرين فى البلاد . أما القانون الثانى والثالث فقد وضعا ضرائب على بعض الواردات ، وكالعادة دون موافقة المستعمرات ، وكذلك وضعت الضرائب على الزجاج والورق والدهان ، والشياى وقد لقى القانونان هجوما عنيفا من بين وبروك فى بريطانيا نفسها . أما فى فرجينيا فقد كان هنرى واتباعه كالنار الملتهبة ضد هذه القوانين .

وقد خشى الحاكم مغبة المقاومة ، فلم يجد أمامه سبيلا سوى أن يحل المجلس .

وخرج (الرجال العابسون) كما سموا أنفسهم أو (ذوو الرؤوس الساخنة) كما سماهم المحافظون ، خرجوا يسيرون فى شوارع « وليامسبرج » الأرستقراطية الى مقهى رايلى وطلبوا ما يشربون ثم اغلقوا الابواب ، وعقدوا جلسة يعاقب عليها القانون ، ولكنهم كانوا يصنعون التاريخ .

وهناك فى حجرة صغيرة ، كان جيفرسون وريتشارد هنرى لى ، وفرانسيس لايتفوت لى ، ودابنى كار ، وبيتون راندولف ، وجورج ماسون ، مع باتريك هنرى ، يضعون أرواحهم فى خدمة الامة الجديدة المستقلة .

وكانت تلك كلمات خطيرة ما تقال الا وراء باب مغلق ، ولكنها كانت ترفع الهمم ، كعلم يخفق فى سماء العالم . كانوا ينظرون الى مستقبل مضىء ، ولم يكن منهم من هو أبعد نظرا من هنرى باتريك . وقد قال عنه جيفرسون : « إننا مدينون له بالاجماع والذى انعقدت عليه عزائمنا »

وكانت المستعمرات محتاجة الى هذا الاجماع . وكان يجب عليها ان تصل اليه اذ لاحول لها مع انجلترا مادام الرجال مختلفين ... فاذا ركزوا جهودهم متفقين فانهم يخيفون البرلمان ويوجهونه فى اتجاه معقول ... وقد طلبوا عقد مجلس « للقارة » يعقد جلساته فى فلادلفيا عام ١٧٧٤ م.وقد انتدب كل « المتقدمين » ومنهم هنرى وكذلك دعى المحافظون مثل جورج واشطن واجتمعوا فى البناء التاريخى الصغير الذى عرف بعد ذلك (بقاعة الاستقلال) وقد تقابلوا مع الوطنيين من انجلترا الجديدة.ولكن هؤلاء الرجال القادمين من « فرجينيا » كانوا كما قال عنهم جون آدمز فى مذكراته:« اقوى الجنود روحا واكثرهم اتزانا » واضاف بعد ذلك كلمته : « كان هنرى باتريك اكثرهم ادراكا لموقفه وكان يملك الشجاعة والصراحة لتقرير ذاته » .

وقد افتتح هنرى الكونجرس طالبا من المندوبين ان ينسوا انهم يمثلون وان يقترعوا بصفتهم وطنيين وقال : (إنى لست فرجينيا ولكننى أمريكى) ولما انفض الكونجرس قدم مذكرة لبريطانيا قال عنها اللورد تشاتام فى مجلس اللوردات : (التفكير المتزن والحكمة توحيان ان كل محاولة لوضع رجال كهؤلاء تحت نير العبودية أمر خطير ..) وذهب معظم النواب الى بيوتهم راضين عما فعلوا ... ولكن باتريك هنرى ظل موقنا ان بريطانيا لن ترجع عن عنادها وان على المستعمرات ان تحارب .

وقد اثبتت المصادمات التى وقعت بين اهل بوسطن ، والجنود البريطانيين واعلان جورج الثالث عزمه على (تحطيم تجارة المستعمرات) رأى هنرى .. وكان رده ان دعا الماليشيا الفرجينية وطلب منهم « أن يتسلحوا وأن يستعدوا للصراع القادم » وعندئذ قدمت مذكرة للبرلمان البريطانى بالعفو عن جميع العصاة النائبين باستثناء باتريك هنرى .

وفى ذات يوم من مارس ١٧٧٥ م.اجتمع مؤتمر فرجينيا فى ريتشموند ليكون بعيدا عن الحاكم والاسطول البريطانى والمحافظين فى وليامسبرج . وكانت ريتشموند بلدة صغيرة حديثة،وكان اكبر مكان يصلح للاجتماع هو كنيسة سان جون وهى تبدو صغيرة فى نظرنا الآن،ولكنها بدت اصغر كثيرا حين وقف باتريك هنرى يتكلم فيها .

ولابد ان الكنيسة كانت باردة كما هى الآن اذا ذهبت لحضور الحفل الذى يقام لذكرى خطبة باتريك الرائعة .

كان امام البلاد ان تختار بين السلم والحرب،فاذا اختارت الحرب،فانها ستقف امام جنود مدربين متمرسين بالقتال يقابلهم هواة سيئو التسليح . وعليهم مقابلة اعظم القوات البحرية « بمراكب الصيد ».ولو اختار المندوبون السلم فان اموالهم واعمالهم ورقابهم تكون فى امان.فلم يكن عجيبا ان نجد الكثيرين مترددين حذرين حائرين بين هذا الجانب وذاك وعندما بدأ هنرى باتريك يتكلم لم يكن يبدو أنه متأكد من الموقف والمصير .

ولكن هذه كانت احدى خدع هنرى القديمة،اذ كان يبدأ مترددا ويتكلم بصوت منخفض،وكأنه غير واثق من أفكاره وترك صوته يرتفع قليلا ، قليلا حتى صار يدوى فى جنبات الكنيسة الخشبية وصار يدوى كالرعد وقال :

بعضكم ايها السادة وقد يصرخون « السلم » السلم،ولكن ليس هناك سلم ... ثم هل الحياة غالية والسلم لذيذ الى حد يسمح بأن نشتريه بالسلاسل والاغلال ؟؟ .

وحين يقرأ الامريكى تلك الكلمة الخالدة ، تبدو وكأنها كلام يخص الماضى البعيد ... (السلاسل والاغلال) كانت مجرد كلمات .. ولكنها الكلمات تركت أثرها قتلا أو جوعا ، لم يستطيعوا ، أن يصرخوا كما صرخ باتريك هنرى فى ذلك اليوم حين قال : (عفوا ياربى ... إننى لا اعرف أى طريق سيختاره الآخرون ، أما أنا ... أنا يارب ... أعطنى الحرية أو أعطنى الموت ...)

أما المؤتمر الذى أشعلته خطب باتريك حماسا فقد أمر بتدريب فرق من المدفعية والفرسان والمشاة،وأتت الاخبار بان دنمور الحاكم البريطانى قد استولى على مستودعات البارود فى (وليامزبورج) وعندئذ قاد هنرى باتريك الماليشيا من بلدته وسار فى اتجاه العاصمة .. وسرعان ما لاذ دنمور باذيال بالفرار الى مركب حربى ... ومن هناك أعلن أن هنرى باتريك رجل خارج على القانون .

ولكن الرجل الخارج على القانون ، كان فى طريقه الى الكونجرس ، الذى انتخب جورج واشنطن قائدا عاما ... وأسرع هنرى تاركا زوجته على فراش الموت ، حيث قاد المااليشيا،وكان ذلك تحت أشجار كلية (وليم ومارى) .

ولم يكن "باتريك" مجرد خطيب يدعو الى الحرب ، ولكنه كان مستعدا لخوض غمارها كبطل .

ولكن الامور وضعت حدا لهذا،اذ أوقفت قيادته للماليشيا وكانت قواتها التى تحبه وتتفانى فيه على وشك التمرد ضد الضباط الجدد ، لولا حكمة هنرى الذى هدأهم ثم استقال ... وهذا ما كان يأمله أصدقاؤه لأن الحياة المدنية كانت فى حاجة اليه أكثر من الجيش .

وبعد وقت قصير كان له المكان الاول فى صياغة الدستور الفرجينى ، ثم انتخب حاكما لفرجينيا .

ولعل الصحيح أن هنرى لم يكن جنديا ، ولكنه كان صاحب الفكرة فى إرسال (جورج روجرز كلاك) مع حملته عبر الجبال،وهى الحملة التى حفظت الغرب الاوسط للولايات المتحدة .

ولعله لم يكن سياسيا،ولكنه كان الرجل الذى اكتشف،واعلن مؤامرة الضباط الذين أكلتهم الغيرة من بروز واشنطن فصمموا على طرده ...

كان هنرى ، قبل كل شيء ، مواطنا غيورا على مصلحة بلاده .

وبعد سبع سنوات من الصراع المرير ارتفعت راية النصر ... وكانت مشاكل امريكا بعد الحرب مخيفة مريعة،وكانت ديونها مرتفعة إرتفاع الجبال ... وكان هناك الكثيرون الذين صرخوا طالبين الحرب وقد صارت الصرخة الآن مألوفة،ولكن الذين كانوا على استعداد لاحتمال أعبائها قلة من الافراد .

ولو ان سياسيا اقترح ان تدفع الدولة ديونها الممثلة فى مرتبات الجنود المسرحين لاعتبر هذا انتحارا ، ومع ذلك فان هنرى أجبر فرجينيا على زيادة ضرائبها لدرجة أثقل جدا مما كانت تفعل إنجلترا . ومع ذلك فقد انتخب حاكما للولاية خمس مرات .

ولكن الأجل الذى سجل مجده فى تاريخ امريكا،والذى كانت وطنيته وشرفه فوق كل شك وشبهة ، قاده ايمانه الى طريق جانبى تبعه امريكيون طيبون وهو طريق الانعزال .

وطلب من لجنة الدستور الاجتماع لتكوين الاتحاد بين الولايات.رفض هنرى ان يحضر الاجتماع واكثر من هذا فإنه لما وضع الدستور عام ١٧٨٧ م.وأرسل الى الولايات المتحدة لاعتماده « قاومه هنرى باتريك بمرارة » وبكل نفوذه وقوته فى مجلس ولاية فرجينيا.وكان يرعد لمدة ثلاثة وعشرين يوما ، ويتكلم أحيانا خمس مرات فى اليوم الواحد ضد المشروع ، لانه كان يخشى أن تموت حقوق الولايات ، وحريات الافراد ، اذا كونت حكومة مركزية قوية . ولكن لما قبلت فرجينيا والولايات الاخرى الدستور اعلن برجولته المعهودة قبوله،ولكنه كان يخشى دائما قوة الحكومة الفدرالية ... ولم يخدم باتريك هنرى يوما واحدا الحكومة الجديدة، ولم يكن واشنطن ليتردد فى أن يكون هنرى وزيرا ، أو رئيسا للمحكمة العليا ، أو سفيرا للولايات المتحدة الامريكية فى فرنسا ، ولكن هنرى باتريك كان يحارب ، ومازال يحارب من اجل الحرية . وقد ظهر له كما ظهر لجيفرسون وجورج ماسون وغيرهما ان هناك ثغرات فى الدستور ، ومن خلال تلك الثغرات ، ستسقط المبادىء التى حارب من اجلها جنود الثورة وماتوا فى سبيلها ، ومنها حرية الكلام والاجتماع ، الحق فى عدم دخول السجن دون محاكمة ، والحق فى حمل السلاح . والحق فى المحاكمة بواسطة المحلفين ، والحق فى انتقاء الحكومة وموظفيها ، وحرية المعتقد ودون هذه الحقوق لن يكون هناك مايمنع الحكومة المركزية من التجنّى على حقوق الشعب .

ولم يكف هنرى عن الكلام عن ثغرات الدستور ... ولم يعوزه الجمهور المستمع حتى نجح فى تكوين فكرة عامة ، ازدادت انتشارا ، وتكون وعى كانت ثماره التعديلات العشرة فى الدستور ... وهى قائمة الحقوق التى يفخر بها كل امريكى يتكلم اليوم عن الدستور ، ومن ان هنرى باتريك لم يكتب تلك التعديلات كما هى الآن ، لانه لم يكن عضوا فى الكونجرس ، الا انها والى حد بعيد نتيجة سهره ودأبه ... والامريكيون اليوم مدينون له بحريتهم الفردية كمواطنين امريكيين فى حدود القانون .

وكان هنرى وعمره أقل من ستين سنة ، قد بدا عليه الكبر ، وحطمه جهاد مرير استمر أكثر من ثلاثين سنة ، وقد أراد أن يتقاعد الى حياة الخلاء . ومع أنه قد فقد صداقة جيفرسون وأصبح خصماً لواشنطن ، فقد ظل صديق الجماهير . ولكنه كان قد تعب من القيادة دون شك فانسحب الى (التل الاحمر) فى تلال فرجينيا الحلوة الحمراء ، وحيث الحشائش الخضراء والاحفاد عليها يلعبون .

وكان هناك رجل آخر من رجال الجيل ، اكبر سنا ، وربما أعظم من هنرى ، تقاعد هو أيضا الى مزرعته وحياته العائلية ، قانعا براحته ، كان يعلم أنه لم يقدم رجل الى بلاده أكثر مما قدم هو لها ... ولكنه لم يجد الى الراحة سبيلا .

كان هذا الرجل جورج واشنطن ... وقد رأى بلاده ممزقة من أثر التفرقة . وكان هناك حزب يصيح مطالبا بمحاربة انجلترا ، وحزب آخر يطالب بمحاربة فرنسا ـ وكان عملاء الحكومة الفرنسية ، وهى فى أوج جنونها الثورى ـ يتصلون بالشعب مطالبين بالتدخل فى النزاع الاوروبى ، وكان المدافعون عن حقوق الولايات قد قرروا قرارات تعلن أن أى ولاية لها الحق فى الغاء أى قرارات تصدرها الحكومة الفدرالية ، وكانت انتخابات الولايات والانتخابات الفدرالية وشيكة،وكانت الدولة الناشئة ممزقة أكثر منها متّحدةً ، كانت تتمزق داخليا . وكان مركز المعارضة فى فرجينيا التى وصفت بأنها حجر الزاوية المهدد للوحدة . وكانت فرجينيا تمشى وراء هنرى باتريك أينما ذهب ، وهنا أمسك سيد موقف فرنيون ريشته وغمسها فى الحبر وملأ صفحة بعد صفحة من الرجاء الحار يزجيه الى هنرى باتريك .

«فى هذه الازمة ، وحين يتعلق الحزب متدليا على عجلة الحكومة ويمثل ثقلا مميتا معوقا ، ويعارض كل إجراء يقصد به الدفاع وحينما تسير الاجراءات المنظمة والتى ستصل بنا الى حل الاتحاد ... هل يحسن.والحالة هذه.أن تبتعد الشخصيات التى تملك القدرة على إنقاذ الوطن وأن تقبع فى المنزل ؟ ... وانى لآمل أن تتقدم الى الانتخابات القادمة ... إن عظم شخصيتك ، وسمو أخلاقك ، واتساع نفوذك حين تكون فى مجلس النواب ، ستصمد امام الاتجاهات الخطيرة الموجودة الآن ... إنى أرى أنه من الاهمية بمكان ، فى هذه الازمة أن تكون هناك » .

خادمك المطيع جدا

جورج واشنطن

وحين رفع هنرى باتريك عينيه عن الصفحة ، كان وكأنه بوق المعركة ... وكانت الدعوة الى الاتحاد ، فى هذه الفترة أصبحت فى رأى الكثيرين من أنصار العزلة ضرورية من أجل السلم ... وقد ادرك هنرى باتريك أنه ليس هناك حق لولاية أو فرد أثمن ولا اغلى من حق الولايات المتحدة (فى أن تحيا متحدة) .

وقد أعلن هنرى انه سيعضد ترشيح الفديرالى جون مارشال لمجلس شيوخ الولايات المتحدة،وأنه هو نفسه سيرشح نفسه لمجلس ولاية فرجينيا . ومع أنه كان مريضا عاجزا الا انه قطع عشرين ميلا الى شارلوت ليتكلم ... وقد اكتسحت أخبار رجوعه الى حلبة الولاية كلها ، وتدفقت الجماهير من جميع الولاية ، ووقفوا ينتظرون مقابلته حين يخرج من الفندق ..... وخرج ووقف على درجات السلم ، وقد أحنت السنون ظهره وكان وجهه شاحبا ، وبدا صوته كما فى الايام الماضية منخفضا بطيئا ... عبر عن ادراكه بأنه لاينبغى أن ينهار كل ما ناضل من أجله والاتحاد الذى حاربه باعتباره خطرا على الحرية كان عليه أن ينقذه الآن ... خوفا من التفرق والتمزق والتدخل الاجنبى أن يخطف جميع الثمار ... وبدا كأن قامة هنرى لم ترتفع قط ، ولم تشمخ كما ارتفعت وشمخت فى هذه اللحظات ... واستطاع الإيمان بفكرته أن يقيم قامته المنحنية أمام الجماهير .

ورن صوته وتدفق بيانه وهو يقول:(ليس لأية ولاية الحق أن تعترض على صحة القوانين الفدرالية ، ولا يمكن أن يكون جزء من الكيان أفضل من الكل) ثم تابع صيحته قائلا : وقد سئلت ماذا يستطيع الشعب أن يفعل اذا شعر انه مضطهد أو معتدى على حقوقه .. وجوابى على هذا : هو واجب الشعب عندئذٍ أن يقلب الحكومة ... ولكن لننتظر حتى يكون هناك اعتداء على حقوقنا أولا ... لن نصل الى هدفنا الا بالاتحاد ... واللجوء الى اى وسيلة أخرى معناه أننا قد وزّعنا الكيان الذى يمثلنا .

وما كاد ينتهى من خطابه حتى سقط ـ بالفعل ـ تتلقفه أيدى الجماهير الهاتفة حيث حمل وهو منهك الى أريكة فى الفندق ... وقال مدرس عظيم كان واقفا بجانبه : (قد غربت الشمس بكل أمجادها) .

وانتخب هنرى فى الشهر التالى ، وكذلك انتخب مارشال .

ولكن قبل أن ينعقد المجلس مات جورج واشنطن صاحب السيف الذى لم يصدأ ... ومات أيضا (باتريك هنرى) ... صاحب اللسان الذى كان كالسيف ....

وكتب التاريخ قصة (لسان من نار) .

وفي الصبح
اطلقوا
النار على
الجواسيس



وفي الصباح اطلقوا النار على الجواسيس

لكل مهنة أخطارها ... والرجال والنساء الذين كرسوا أنفسهم لخدمة أوطانهم فى الجاسوسية ... يلاقون مثل هذه الأخطار ... ومهما حالف الحظ الجاسوس ... فقد يكون ناجحا اليوم أو اليوم الذى قبله ... ولكن خطورة واحدة خاطئة اليوم ، قد تعنى القبض عليه . وفى معظم الحالات ينتهى به الطريق الى خطر المهنة النهائى .... الموت !!!

كنا درنا حول (لييج) وتوجهنا الى الشرق فى الطريق الذى يمر بالحصون البلجيكية ، المحفورة فى الارض وكان الجو باردا ، قبل عيد الميلاد بيومين .

وكان الوقت مبكرا ، والطل يتلألأ على الحقول على طول الطريق ، وتذكرت مرورنا من هذا المكان بالدبابات فى سبتمبر ، كان الجو حارا ، والشمس مشرقة كل يوم ، والالمان يركضون فى اتجاه الراين . لم يكن من السهل أن نجد الألمان فى ذلك الوقت ، ولكن الامريكيين قد يجدونهم فاذا بهم يستسلمون ، مما جعلنا نتوهم أن الحرب ستنتهى فى عيد الميلاد،وتلامحت فى خيالنا سيرة العودة الى البيوت والولد وجو الاسرة الحنون .

وقلت للسائق الذى يقود سيارتى : استمر ، وبعد أن نمر من (هنرى تشابل) سأخبرك ، ثم تابعت أقول : إنّى أتذكر ان المكان يقع على الجانب الايسر من الطريق . وحين مررنا (بهنرى تشابل) كان الناس يبدأون يومهم فى الشارع المقفر ، اذ لم تر سوى امرأة متلفعة بشال تصب جردلا من الماء المغلى فى مجرى على الطريق ، وعلى الرصيف عاملان يسيران وقد تلاحقت أنفاسهما يحيلها الصقيع الى دخان ، وقد وضعا أيديهما فى جيوب سراويلهما ، دون أن يعيرنا أحدهما أى اهتمام .

وقلت للسائق : هذا هو المكان ـ وتذكرت الحائط الذى على جانب الطريق ، والفتحة التى فيه وبناء المعسكرات من الاسمنت على جانب المربع الترابى ... وتخطينا حارس البوابة ، وعبرنا الفناء المتجمد ووضع السائق عربة الجيب مع العربات الاخرى فى آخر الصف ، وخرجنا من السيارة لنواجه سياط الجليد ..... وسرنا عبر الطريق الترابية الصلبة حتى ظهر لنا معسكر فى شكل مكثف ، رأينا فيه رجال البوليس الحربى يشتغلون وراء مكاتبهم البسيطة وحين رأينا فى الغرفة موقدا من طراز قديم ، أسرعنا اليه ومددنا ايدينا نستدفىء ، ونتلذذ وهج النار الى ان وافانا ملازم شاب وسألنا عما اذا كان يستطيع أن يساعدنا .

وقلت له : نحن هنا فى مهمة سرية .. فأجاب الملازم : وقد كان على علم بمهمتنا ـ أوه اذن اذهبوا الى صالة المطعم (وأشار بيديه ، واستطعنا أن نرى خلال زجاج الباب المكان الذى اشار اليه . فسألته وأنا أسير الى جانبه .. متى سيتم الامر ؟فأجاب اخشى أنى لا اعرف ثم أردف يقول : هذا المكان صاخب كما تريان ... اذهبا الى هناك ، وأنا واثق انكما ستجدان من يخبركما فى الوقت المناسب .

وخرجنا وسرنا عبر الفناء فى اتجاه البناء والجانب الظاهر منه كان مصنوعا من أبواب منزلقة وكان احدهما مفتوحا ... وفى الداخل رأينا أفرادا من الجيش التاسع ... لاشك انهم جاءوا من (ماستريخت) ، وحكمت ان المكان كان يستعمل مأوى للخيول فى ايام الالمان ، والآن حوله الامريكيون الى صالة مطعم .وكان هناك رجال يجلسون على مصاطب وظهورهم الى الموائد الطويلة ، بينما يمشى الآخرون بخطواتهم العسكرية وأيديهم فى جيوبهم .

وبعد دقائق ، دخل نقيب صبوح الوجه ، حليق ... صغير السن ... وبدا أنظف من أى شىء فى المكان ، وكان يدور بنا معرفا بنفسه مبتسما ومصافحا ... ومع أنه حاول ان يلعب دور المضيف الكامل ، فقد كان تحمسه ولطفه مبعث ضيق ، لم ادر له سببا .

ـ وقال النقيب : احسب أيها السادة ، أنكم جميعا تعلمون عن الرقابة المفروضة على كل الصور وأجاب احد المصورين:« نعلم عن الامر ونرجو ألا تزعج نفسك بالتفكير فيه ـ وقال النقيب : وأظنكم تعلمون انه يجب ألا تكتبوا اى كلمة عن الموضوع وكان هذامفاجأة لمندوبى الصحف ومع أنهم بدأوا يتذمرون ، وبشدة إلا انهم كانوا يظنون ان

الامر مفرغ منه وأيّ محاولة لاتعنى الا تبديد الوقت وقال احدهم : ظننت انهم لم يوصلوا الخبر الى الالمان حتى يوقفوا هذا التسلل الملعون فى خطوطنا .

ـ فقال النقيب : أنا لا أعرف شيئا عن هذا .

ـ وقال آخر : ولماذا لم يخبرونا عن هذا حتى لانضيع وقتنا فى رحلة لا خير فيها ، فى هذا الصباح البارد ؟

ـ فقال النقيب : آسف ... انى لا اعلم عن هذا الامر اكثر مما تعلمون . وضج المندوبون وهددوا بأنهم سيعودون ، ولكنه كان مجرد كلام .

ولوضع حد للجدل ، سأل أحدهم النقيب عما يعرف (عن السجناء) ـ وقال النقيب : بعد ان فكر ليتذكر شيئا رتبه فى ذهنه قبل حضوره ـ كل الذى أعرفه انه قبض عليهم ليلا داخل خطوطنا ، وهم يرتدون ملابس عسكرية امريكية ويحملون راديو ، ويركبون عربة جيب أمريكية ، وبمجرد وصولهم الى خطوطنا القى القبض عليهم ولم يتمكنوا من عمل شيء.ثم أضاف النقيب يقول : ان واحدا منهم ـ وهو القصير ـ نازى قح اما الاثنان الآخران ، فهما بريئان من أى تصميم على التجسس ، وواحد منهم صبى مزرعة من (ستفاليا) ، وهو شاب بسيط وأعتقد أنه شريف .

والحكاية التى يقولها ، أقرب الى الاعتقاد أنه صادق ، وهى أنه منذ أسابيع مضت وقبل بدء الهجوم الالمانى المضاد سمع عن طلب عدد من الرجال الذين يتكلمون الانكليزية فى تطوع لانه حسبها مهمة سهلة كالترجمة فى القيادة لاستجواب الاسرى او اى شيء من هذا القبيل ... ولكنه سرعان ما وجد نفسه فى عربة جيب امريكية ، يرتدى بذة رسمية امريكية ، يتجه نحو خطوطنا وقال:انه لم يكن يستطيع عمل شيء،وهو صادق بالطبع .

وقفنا حول النقيب نصغى اليه ، بينما كان بعض رجال الجيش التاسع يكتبون مايهمهم تدوينه ، ولاشك ان النقيب كان كفئا،وقد قال لنا كل ما فى استطاعته ان يقوله .

وسأله احدنا . وما جدوى الانتظار ؟ ـ قيل لنا :ان المسألة ستنتهى فى الساعة التاسعة والنصف ؟

ـ فقال النقيب : لا اعرف واظن أنهم ينتظرون ليروا اذا كانت هناك أوامر اخرى ، ليتأكدوا من انه لم يطرأ جديد فى الموضوع .

ـ والى متى سننتظر اذن ؟

ـ قال النقيب : لعلنا سنعرف شيئا خلال نصف ساعة من الآن .

ـ هل يمكنك ان تخبرنا ، كيف كان استقبال السجناء لهذا الامر ؟

ـ قال النقيب : يبدو لى انهم لا يبالون كثيرا ... زار القس اثنين منهم ، اما النازى الاصيل فقد رفض رؤيته .. والعجيب انهم طلبوا من الممرضات ان يغنين لهم بعض اناشيد عيد الميلاد .

ـ اذن فهم يعلمون مصيرهم ... يعلمون انهم سيقتلون رميا بالرصاص .

ـ فقال النقيب : فعلا لقد أخبرهم القس بذلك البارحة .

ـ وهل أجيب طلب الأناشيد ؟

ـ قال النقيب : بالطبع ، وكان أهم نشيد غنينه ، نشيد الليل الصامت . وقد أوقفناهن بعد فترة ، لأن النشيد كان يثير مشاعر جنودنا .

وقد جال فى نفسى ان النقيب لا يعلم ان أنشودة الليل الصامت هذه استعارها العالم من الالمان.وبعد لحظات ، قال النقيب : والآن سنذهب . وارجو ان ترافقونى ، ثم اضاف حين نصل ، يحسن ان تقفوا على بعد ثلاثين ياردة ، وألا تجتازوا الخط الذى يقف عليه البوليس الحربى ، وفوق هذا عليكم ان تظلوا حيث انتم ، اذ لن يسمح لكم بمغادرة المكان ، الا بموافقة السلطات .

وعقب احد رجال الجيش التاسع يقول : معنى هذا ان من يريد ان يذهب ، عليه ان يذهب الآن .

فكرت فى التخلى عن مرافقة المجموعة ، واعترف ان الخوف أخذ يسيطر علىّ ، ولكن وجدت نفسى اتبع النقيب الى عربات الجيب ، وحين انطلقت بنا ، كنت اتساءل عما اذا كان السجناء يعلمون ان ساعتهم قد دنت . ووصلنا الى حائط يرتفع عشرة اقدام تقريبا ، وعلى بعد ثلاثة اقدام منه ، اقيمت ثلاثة اعمدة سوداء ، ووقف الى جانبنا رجل من رجال البوليس ينظر الى الاعمدة التى كان يبدو أنها قد اقيمت حديثا .. وألقيت نظرة على الوادى ، والمنازل الصغيرة الصفراء المتناثرة فيه ، ومع ان الجليد كان يغطى دروبه ومسالكه ، فقد تألقت فى ذهنى صورة هذا الوادى وهو يموج بالخضرة وألوان الزهر ، عندما يتبرّج الربيع وقلت لنفسى : الجليد والبيوت الصفراء الشامخة ، والاشجار المجردة

اليابسة ، هي آخر شيء تقع عليه عيون هؤلاء الذين قضى عليهم ان يقتلوا رميا بالرصاص بعد لحظات ، ولم يطل بي التأمل ، ومشاعر الاسى لهم ، اذ سمعت وقع اقدام تتقدم نحونا ، وما كدت التفت حتى رأيتهم قادمين ، يتقدمهم ضابط من البوليس الحربي ، خلفه السجين الاول ، ثم ثمانية من البوليس الحربي ، يليهم السجين الثاني ، وخلفه ثمانية آخرون ، ثم السجين الثالث ، وخلفه أيضا ثمانية من رجال البوليس الحربي .

وكان السجناء يرتدون ملابس الجيش الامريكي ، واستبعدت ان يرموا بالرصاص وهم في هذه الألبسة ، وقبل ان يطول بي التفكير في هذا ، ارتفع صوت الضابط آمرا بالوقوف ، وقد ادهشني قول ذلك انهم وإن كانوا سجناء ، وفي اللحظات الأخيرة من حياتهم ، فقد كانوا حريصين على ان يمشوا المشية العسكرية التي دربوا عليها بكل ما فيها من صرامة وعنفوان .

وما هي إلا لحظات حتى رأينا رجلين من رجال البوليس الحربي يقودان أحد السجناء الى العامود الاسود ، ثم استدار الجنود ووقفوا في صفين ، كل صف يتكون من اثني عشر رجلا ، وشرع رجال البوليس يوثقون السجناء الثلاثة . كلا منهم على عامود .. ولا شك ان شحوب الموت قد صبغ وجوههم ، ولكنهم مع ذلك كانوا رابطي الجأش ، يسايرون تصرفات الجنود ، مسايرة فيها الكثير من حبهم للنظام ، وتقديرهم لمهمة الذين كلفوا بتنفيذ الحكم عليهم ،وبعد لحظات وقف ضباط البوليس الحربي ، واخذوا يستعرضون ويفتشون وثاق السجناء ، ثم جاء القس وهو يمشي ببطء وبيده كتاب أسود صغير ، وأخذ يتنقل بين السجناء الثلاثة ، واحدا بعد الآخر وهو يحاول إنهاء مهمته على الوجه المطلوب ... ثم غادر القس موقفه من السجناء ليقف خلف الرجال الذين سيقومون باطلاق الرصاص .

ثم بدأت عملية عصب الأعين بقطع القماش السوداء ، ووجدتني أقول لنفسي : هذه هي آخر لحظة يرون فيها وجه الحياة .

وكان لابد من عملية اخرى قام بها رجلان من البوليس الحربي ، وهي تعليم دائرة من الورق الابيض بدبوس على مكان القلب من كل سجين ، والغرض منها ألا يخطىء الضاربون هدفهم المنشود .

وكان من السهل جدا ان أغمض عيني ، أو أن أدير ظهري لهذا المنظر ، ولكن

فضولى كان اقوى،فاذا بى اقف محملقا منتظرا اللحظة التى ارى فيها كيف يمطر هؤلاء السجناء بالرصاص ، وكيف تتم عملية الإعدام .

ولم يطل بى الانتظار كثيرا ، ثم رأيت البنادق ترتفع الى الصدور ، ولم أكن اتوقع أن أسمع كلمة واحدة من السجناء ، ولكن أشد ما دهشت ، حينما سمعت من وصفوه بالنازى الاصيل يرفع صوته قائلا : هايل هتلر،هايل ادولف .

ومع هذه الصيحة انطلق صوت الضابط آمرا باطلاق النار ، وانطلقت النيران فعلا ، وكأنما تصدر من مدفع رشاش .. وانحنت رؤوس السجناء .. كانوا ما زالوا يموتون . وحتى فى هذه اللحظات ، ظل النازى الأصيل ، رغم انحناء رأسه واقفا مستندا على العامود الأسود ، ولكنها لحظات قصيرة تنقل خلالها الطبيب بسماعته على صدور القتلى ، حيث قرر فى النهاية انهم قد ماتوا فعلا .

لم يتردد المصورون فى التقاط صور القتلى منذ بدأت عملية تجهيزهم للموت ، الى ان تساقطوا واحدا بعد الآخر . ثم الى ان وضعوهم فى اكياس ايذانا بنهايتهم ومصيرهم المحتوم .

وحين عدنا الى المكتب الصغير ، قرب البوابة ، لم يكن لدينا الا ان نتجمع حول الموقد المتوهج بالنار طلبا للدفء،ودارت الاحاديث التافهة عن ملاحظة هذا وذاك من المحررين والمصورين ، ثم جاء القس ، وتلقى عبارة الشكر من الضابط لانجازه المهمة التى كلف بها على ما يرام .

وفى سيارة الجيب ، التى كنا نعود بها فى نفس الطريق ، كان السائق يسألنى كيف تم الامر ، فظللت اسرد له تفاصيل ما وقع .

وحين صفا الجو بعد الظهر ، ظهرت طائرات الالمان ، ثم اخذت تهاجمنا على ارتفاع منخفض ، وهى تمطرنا وابلا من الجحيم ، لم يذهب هباء ، اذ ما كادت تنسحب حتى وجدنا أن أحد زملائنا وثلاثة رجال بلجيكيين والكولونيل اندروس قد قتلوا بالرصاص تماما كما قتل الجواسيس الثلاثة فى الصباح .

صورة سريعة لمأساة الحرب حملنى على تسجيلها أنها مما رأيت فى ليلة عيد الميلاد الذى قضيناه بعيدا عن منازلنا .. بعيدا عن الحياة .

رُبان
البحار
السبعة



ربان البحار السبعة

حملت الريح الى الفتى الذى سار ببطء على أحد طرق يوركشير أول كلمة فى صدره . كانت كلمة واحدة جوفاء.ولكنها كانت مليئة بالمعانى،واذ سمع الصوت المبحوح رفع رأسه مصغيا . وبعد ذلك القى الفتى الذى ولد بعيدا عن الشاطىء - وكان واحدا من تسعة نشأوا معا فى حفرة طينية - اول نظرة عن كثب على المحيط .. ورأى كيف يمتد المحيط بعيدا الى الافق،ورأى كيف تتكسر مياهه على الصخور ضاحكة من الامواج البيضاء، وكأنها اذ تضحك تدعوه بأعينها الزرقاء .

وابتدأ يجرى على المنحدر الممتلىء بالاعشاب الملحة ونفايات البحر ، الى الشاطىء حتى دفعت الموجات الصغيرة بالزبد الثائر فى اتجاهه . وكانت كأنها سفن تسيرها القلوع ، ولا بد أنه غمس يديه فى الخضم البارد،وكأنما أراد أن يغسلهما من قذر حقول البطاطس حيث كان يعمل كالرقيق ، ولا بد أنه وضع اصابعه المبتلة على شفتيه.وذاق الماء الأجاج فاشمأز .. وفى ذلك اليوم او على التحديد فى سنة ١٧٤١م.كان جيمس كوك وعمره ثلاثة عشر عاما،والذى قدر له ان يكون اعظم من مخر عباب البحار فى اعظم أمة من رجال البحر فى العالم ، وجد البحر عاشقه الذى لا يقهر .

وكان اسم الرجل الذى يستخدمه (ساندرسن) ، بقالا وبائع اقمشة فى قرية ستايث . وكان فظا يسىء معاملة خادمه . وكان جيمس الصغير ينام تحت البنك ذليلا ويقف خلفه نهارا ليبيع المشروبات الخفيفة . وكان ساندرسن كثيرا مايلقى صبيه على البنك،وينهال عليه ضربا حين يعود مخمورا من الحان .

وقد احتمل جيمس ، كل هذا مع قلة الطعام ، بسكوت لان (ستايث) كانت بالقرب من" وايت بى"حيث اتت السفن - ولم تكن وايت بى ميناء تحف به قصص

المغامرات ، ولم تصله بضائع الشرق العجيبة ، ولكنه كان ميناء يصدر الفحم والحديد والأحجار الى لندن وباريس،وكان يرد اليه زيت الحوت والخشب من النرويج ودول البلطيق .

وكان كل ما يختص بالسفن والبحر يهم الطفل النحيف،النصف جائع والسريع النمو، ولم يكن يحصل على كفايته من رائحة القار والخشف ، ولا من الريح المحملة بالملح ولا من رائحة تبغ البحارة ، ولا من كلام الرجال الذين يرتادون البحار ، ولا من طقطقة خشب المراكب ومواء النورس ، ولا من القلوع ، وهى تنزل ، وسلاسل المرسى وهى تقعقع .

وكان دائما يدرس شراع مقدمة السفينة،وحاملات القلوع ومخازن السفن فى كل طراز من السفن ، وقد ارتسمت جميعها فى عقله ، وقد شرب من مياه ميناء"وايت بى"حتى ثمل مثلما كان يثمل مخدومه ساندرسن بالخمر .

وحدث ذات ليلة ان اندفع ساندرسن يبحث عبثا فى دكانه الفارغ عن الفتى وكان يدور بعصاه باحثا عن جيمس كوك .. ولكن جيمس كان قد ذهب الى البحر .

واول سفينة عمل عليها كوك كانت تحمل اسما رومانسيا وهو (الحب الطليق) وكانت عبارة عن سفينة فحم لا بهجة فيها .. قوية بطيئة ، يمكن الاعتماد عليها .. وكانت حياة خادم السفينة كوك اقسى جدا من حياة خادم البقال ، بائع الاقمشة،وكان يتلقى من الضرب اكثر مما كان يتلقى من معلمه الاول مع طعام اشد رداءة .. وكانوا يعاملون جيمس كوك على السفينة باعتباره رجلا رغم صغر سنه . وكان هو يشعر شعور الرجل ، ويسكن فى الشتاء فى منزل احد اصحاب السفينة من طائفة الكويكر ، ومن المتمسكين باعلى المثل الادبية فى الدين والعمل .. ولعله تعلم من هؤلاء الاصدقاء ، الكثير من الاساليب والانظمة وتقاليد الشرف والمجاملة التى امتازت بها حياته فى مقتبل أيامه .

وترقى الى درجة بحار،ثم الى درجة ضابط واخيرا صار ربانا وقد وصل الى غرفة القيادة عن طريق ثقب الجبل ـ كما يقول البحارة . وقد منحته الحياة الصعبة التى عاشها قوة وصلابة حتى اصبح يستطيع اكل اى شىء ، ويحتمل اى طقس ، ولكن هذه الظروف لم تنل من رقة قلبه ولم تحجر مخه ، وكان .. الى ذلك دائم الدرس . فالتهم علم الحساب ـ علم الفلك ـ علم تقويم البلدان ، وقد علم نفسه الهندسة الرياضية،وكان دائما يدرس الرجال .. وقد علمه هذا ان يطيع وان يقود .

وذات يوم من سنة ١٧٥٥م.وكانت انجلترا فى حرب مع فرنسا ، رأى فى ميناء لندن بعض الجماعات تمر فى الشوارع للقبض على بحارة السفن التجارية ، لقسرهم على الخدمة فى السفن المحاربة ، وكانت الحياة على السفن الحربية ، فى تلك الأيام قطعة من الجحيم على الماء ، وكان اول ما هم به كوك ، هو الاختفاء ، ولكنه سرعان ما غير قراره .. ولم تغير هذه الخطوة مجرى حياته فحسب،ولكنها غيرت تاريخ العالم وخريطته ايضا .

تقدم كوك .. وتطوع فى خدمة الملك جورج . وبدأ كوك من اول السلم ، وعمل معتمدا على مقدرته ، وبعد ان مرت من حرب السبع سنوات أربع سنوات ، اصبح قائدا للمركب (مركيورى) وارسل الى حصار (كويبك) . وكانت اول عملية قام بها هى جس الغور ، فى سان لورنس ، وتحت مرمى المدافع الفرنسية الساحلية ، وما كاد يقوم بما كلف به حتى طارده الهنود ، فى قواربهم ، وعندما صعد ذوو الجلود الحمراء الى مؤخرة قاربه لامس مقدم القارب الأرض،وقفز كوك من القارب وهرب .

وتم الصلح عام ١٧٦٢م.وكان عمر كوك ٣٤ عاما وسمح لنفسه ببعض اللهو ، وتزوج فى تلك السنة ، ولكن اليزابيث زوجته مثل باقى نساء رجال البحرية ، لم تر زوجها كثيرا لانه قضى معظم سنوات عمره الباقية فى البحار.وكزوجة ، كان عليها ، ان تتحمل القلق والوحدة والاطفال والمجد والنهاية السريعة .

وفى سنة ١٧٦٩م.اضاءت نجوم الحظ حياة ابن حارس الغابة . لتجعل مصيره اكثر اشراقا ولمعانا ـ وحسب ادق حساب رجال الفلك كان نجم الزهرة سينتقل ، وكان هذا النجم الصافى سيعبر قرص الشمس وهى ظاهرة لا تتكرر خلال قرن من الزمان . وكان يهم رجال العلم ، ان يكون هناك رصد من نقط كثيرة على الكرة الأرضية ، لأنه بمقارنة وقت الانتقال وحساب ومقارنة اوقات وقوعه على مختلف خطوط العرض ستتاح معرفة المسافة بين الشمس والأرض،وهكذا من سانت بطرسبرج الى فيلادفيا،وقف العلماء موقف المترقب .

وكان لا بد من الحصول على بعض التقارير من الجهة المقابلة من العالم . ولم يكن منتظرا الحصول على اى تقارير من منطقة الكرة الجنوبية الشاسعة ، وكان ربع العالم فى تلك الأيام لم ترسم له خرائط بعد ـ وكان ما كان معروفا لدى الجغرافيين فى اوروبا عن تلك المنطقة الشاسعة انها محيط شاسع بلا جزر او ربما كان بها ـ كما كانوا يميلون الى

الاعتقاد ـ اراض شاسعة ، بمنجم قارة آسيا . ولم يكن المحيط الهادى هو المجهول فقط ، والمكتشفون الذين مخروا عبابه ساروا نفس الطريق القديم ، وهو طريق سفن اسبانيا حاملات الكنوز من الفلبين الى المكسيك ، وهى سفن غالبا ما تجاوزت كل الموانىء ، وحتى استراليا لم تكن معرفة العالم بها على نطاق واسع مرض .. وكانت غينيا الجديدة مغلقة بالأسرار ، ونيوزيلاندا وتسمانيا لم تكونا معروفتين ، ومن جاوة شرقا وجنوبا ، اى نصف سطح الأرض تقريبا كان ملفعا فى ظلام الجهل .. واختارت البحرية جيمس كوك ، ليكون ملاح الرصد الفلكى فى حملة ميدان عملها البحار الجنوبية.وقد اشرفت على العملية الجمعية الملكية ، وهى نوع من مجمع وطنى للبحوث ، وقد وقع الاختيار على كوك لأنه كان قد قدم تقريرا جيدا عن كسوف الشمس قبل ذلك بمدة قصيرة . ولأنه قام أيضا بمسح دقيق وسبر غور بعيد لساحل نيوفوندلاند بدقة متناهية . ولكن قبل كل هذا اختير كوك لأخلاقه ، وكان تكوينه الجسدى رائعا وطوله اكثر من ستة اقدام وكانت شخصيته توحى بالسيادة ، ولم يأت الوقار الذى يتمتع به لأنه شعر باهمية نفسه،وانما لأنه كان ذا قوة روحية .

وكان يضىء هذا حماسه الملتهب للسفر بعيدا ، بحثا وراء المعرفة ، وهكذا فقد رحب بما تلقاه من الأدميرالية من تعليمات . وكان عليه ان يدون ارصاده الفلكية من جزيرة تاهيتى ـ احد جزائر البحر الجنوبى ـ ومن هناك كان عليه ان يكتشف جزرا جديدة يضيفها الى امجاد الملك جورج،والى ثروة التجارة البريطانية .

واذ كان كوك انكليزيا طيبا فقد قبل بسرور العمل الذى أوكل اليه ، ولكن الحافز الأول ، كانت رغبته التى لا تقهر فى المعرفة،وقد ذهب الى ابعد ما طلب منه ، واحتمل اكثر مما طلب منه .. أمضى جزءا كبيرا من وقته فى البحر،وهو يحارب الفكرة الخاطئة الخرافية التى تزعم ـ وجود ارض خراقية او ممرات خيالية خلال الأرض الجامدة ، او القلح ، وهى فكرة كانت تملأ خرائط برمتها .

ونتج عن عمله انه اكتشف ارضا حقيقية،وفتح طرقا اكثر مما اكتشف او فتح المستكشفون التجاريون او السياسيون فى جميع مراحل التاريخ .

واعطى كوك رتبة مساعد قائد ، وسمح له ان يختار سفينة للقيام بهذه الرحلة الاستكشافية الهامة،ولم يختر مركبا سريعا ولا مركبا ذا ثلاثة طوابق عالية الأبراج،ولا

بارجة تئن تحت ثقل مدافعها،فتؤثر على الشعب البدائى ، وانما اختار كوك احدى حاملات الفحم التى صنعت فى وايت بى ، وهى من النوع الذى يعرفه جيدا ولعلها كانت عريضة عند المقدمة ، ومستديرة فى مؤخرتها وقاعها مبطط وبطيئة السير، وكان يعلم ان الوقت ليس عاملا مهما،ولكن اماكن التمرين كانت العامل المهم ... مركب تستطيع السير فى المياه الضحلة.وحيث يتعذر السير على غيرها من ذوات العمق ، ولو انها جنحت فلن تميل على جانبها،ولو تطلب الأمر اصلاحها فان وضعها على الشاطىء يكون سهلا .

وكانت هذه المركب (ذات التوازن) والتى اعاد كوك تسميتها (انديفر) كانت حمولتها ٣٦٨ طنا،وطولها ٩٧ قدما وقد عدلت فى خدود تكملة استعدادها ، وقد برهنت الأيام على حسن اختيار كوك،ومنذ ذلك اليوم ظلت سفن الاستكشاف تختار من نفس النوع المتين البسيط الذى كانت نموذجه (انديفر) وحتى فى ايامنا هذه فان سفينة الادميرال بيرو المسماة مدينة نيويورك تبدو وكأنها أخت الـ (انديفر) .

وفى يوم ٢٦ يوليو ١٧٦٨م . أبحرت السفينة من بليموت فى انجلترا،وكان على ظهرها ٨٤ شخصا منهم اثنان من الضباط ، الذين كانوا فى تاهيتى قبل ذلك ، مع فرقة من العلماء اللامعين ، خلاف السيد جرين فلكى الجمعية الملكية،وكان معهم سير جوزيف بانكس، وكان عالما ثريا يهتم بجميع النماذج ، ومعه سكرتيره ومجموعة من الفنانين ، والعالم النباتى الشهير الدكتور سولاندر تلميذ لينوس العالم الفذ . وقد اخذوا معهم مكتبة للتاريخ الطبيعى ، وما يلزم من مهمات للجمع والملاحظة ، وقد دفع سير جوزيف فيها عشرة آلاف جنيه استرلينى . وهكذا كانت الـ (انديفر) اول حملة علمية اعدت اعدادا فاق إعداد السفن التى اعدت لحملة هكسلى وداروين فى رحلتها حول العالم .

وكان كوك أكبر من فى السفينة موهبة،وأكثرهم إثارة للاهتمام ، كانت ملامحه واضحة ، ولم يكن له أنف منقار الصقر الذى يميز الارستقراطيين أمثال رايلى أودريك ، ولكن عينيه كانتا مشتعلتين بنور العزم والتصميم . وكان شعره مرجلا بطريقة بسيطة تتوسط بين طريقة ترجيل البحارة والمحامين ، ولم يكن فى وجهه مايظهر حدة الطباع ، سوى حاجبيه الكثين، وكان يحب حياة كل رجاله،ويهتم بصحتهم .

ولما سارت السفينة حول (كيب هورن) الرهيب ، وسارت الى الشمال الغربى ، يوما بعد

يوم الى المجهول كان اهتمام الربان بصالح جميع الرجال قد بلغ حد الدهشة . وقيل : إنه لم يسر على ظهر سفينته من هو أعدل ولا اكثر تعقلا واتزانا منه . كان من الصعب استثارته أو حمله على (ضرب البحارة) ، وهو الأمر الذى كان شائعا فى البحرية فى تلك الأيام ، فاذا اضطر الى توقيع عقوبة الضرب كان حكمه لينا . ومع وجود طبيب على ظهر الباخرة فقد كان يفحص رجاله طبيا فيعنى بالمرضى منهم عناية الأم الرؤوم بأطفالها . ولكن ما أثار البحاره أنه أجبر كلا منهم على أكل عشرة أرطال من البصل كل أسبوع ، وكان يعطيهم جرعات من عسل القصب ، وخل التفاح والخردل . وكان البحارة فى تلك الأيام يأكلون القديد المملح والشوفان والخبز مع القليل من الزبد القديم . ويبتلعون هذا بجالون من البيرة كل يوم اما الآن فكانوا مجبرين على أكل الكثير من الكرنب بالخل ، وقد أعلن بعضهم العصيان ولكن السوط ذا السبعة أفرع دوى وصفر .

ماذا كان هناك ؟ هل كان الربان العميق النظرات هو من هواة تقاليع الطعام ؟ ولكن الحقيقة ان هذه كلمة رخيصة تقال . كان كوك يجس طريقا الى عالم من عوالم الطب لم يكن معروفا ولامستكشفا . ولكننا نرى فيه الآن أساس الصحة ـ وفى تلك الايام كان ضحايا داء الاسقربوط أكثر جدا من ضحايا القرصان،وسلاسل المرجان والصخور والعواصف.وكان ضحايا الاسقربوط يشعرون فى أول الأمر ، باسترخاء عظيم يصحبه انحطاط فى قوى العقل ثم.تغور العينان فى الرأس وتسقط الأسنان من اللثة التى تغدو كالاسفنج ، ويظهر الرجل وكأنه جثة هامدة . ويبدأ يدمى داخليا فى عضلاته وأعضاء جسده الحيوية ، ثم يفقد الوعى ويموت .

ولم يكن يعرف لهذه الحالة من وقاية قبل أيام كوك ، عدا الغذاء بالفواكه الطازجة، والخضروات ولاسبيل الى ذلك فى رحلة طويلة عبر المحيط وقبل اختراع الثلاجات .

وكان كوك يعتقد أنه حصل على حل للمشكلة ونحن نعرف الآن ان الاسقربوط ينتج عن نقص فيتامين ث ، ولم يعرف كوك شيئا عن هذا المنقذ للحياة ، ولكنه عرف شيئا بالغريزة . وكان ذلك فى الأيام التى اضطر فيها رجال البحرية من أصغر ضابط الى أمير البحر أن يفقد العشرات من الرجال،وأن يفقد تسعين فى المئة تقريبا من كفاءة رجاله حتى امام العدو أو العاصفة خلال أية رحلة طويلة فى البحر نتيجة للإصابة بداء الاسقربوط .

وقد بدأ جيمس كوك يحارب هذا العدو (المختبىء) على ظهر السفينة ، ومع أن كوك كان يعتمد على التجارب الا انه كان يعرف ان العقار الذى يشفى من الاسقربوط الموجود فى الغذاء . كان يضيع بطهو الطعام على النار ، ونحن نعرف اليوم ان فيتنامين ث يتلفه التسخين . وعرف كوك ايضا ان بعض فصائل النبات مثل الخردل غنية بالمواد المقاومة للمرض.وقد قدم هذه النباتات الى رجاله فى شكل عصير الليمون والكرنب بالخل،ولم تكن فى حاجة الى طبخ،ولم يكن من الضرورى ان تكون طازجة . ولو أفلح العلاج لكان هذا هو الجواب المرجو . وكان الحكم خاضعا لمرور الوقت وربما للموت .

وفى ١٣ ابريل ١٧٦٩م . وبعد أن سافرت الـ [أنديفر] مسافة ٨٣ يوما عبر المحيط القت مراسيها فى تاهيتى . وما أروعها ثغرا يفترعن أشجار النخيل المظلة ، والفتيات الجميلات يرحبن بالبحارة ، والطيور المغردة ، والأزهار العبقة،وولائم الخنزير المشوى ، والفواكه ذات العصير الحلو . ولم يكن هناك احتمال لحدوث أية اعمال عدائية خطيرة اذ كان الناس أهل مودة والفة . وكان الخوف ان يتمرد البحارة فيأبون الرحيل . وكان هناك خطر وهو أن يسىء البحارة فهم كرم مثل هذا الشعب الصادق،وقد بدأ كوك فى وضع قواعد شديدة وقد عاقب رجلين خالفا أوامره عقابا صارما .

ووضع كوك لنفسه قواعد للتعامل مع الأهالى ، فكان مع الرجال صديقا ، وقلل اختلاطه بالنساء،لأنه قدر أنه يوجد بين اهل تاهيتى كما هو الحال بين الشعوب البيضاء المستقيمون والمنحرفون والمتمسكون بالشرف والمتهاونون فيه ، وأهل العفة ومن هم على عكسهم ، ومن يحبون السلام ، ومن يتحرقون الى القتال .

ولما اضطره الأمر الى القتال استعمل البارود المعد للصيد ، ولكنه كان يعاقب ولايقتل . أما اللصوص فكان يحلق رؤوسهم . وبذا يجعلهم أضحوكة بين جلدتهم . ولما قدم له الأهالى فتياتهم ، وكانوا يقصدون بذلك تكريمه،تخلص من المأزق تخلصا كريما ، وأوضح للأهالى أنه لم يأت الى بلادهم بقصد النزهة ، وانما للقيام ببعض الرصد الفلكى وقد أسماه الأهالى ... (الرجل الباحث عن كوكب) اما البحارة فقد اعتبروه أكثر من انسان . وأصبحت تاهيتى ، وبسبب معاملته المستقيمة مع الأهالى ، الملجأ الذى يلجأ اليه فى كل رحلاته ، فكان يحصل منها على ما يحتاج اليه من مأمن ويستريح هو ورجاله .

ولما رصد عبور النجم بنجاح اخذ كوك مايحتاج اليه من مواد وأبحر متجها الى الجنوب الغربى ، باحثا عن القارة الغامضة ، والتى اعتقد انها موجودة فى ذلك الاتجاه . وأول أرض صادفها كانت نيوزيلاندا وقد برهن أنها مكونة من جزيرتين على شكل رقم ١٨ افرنجى وقد رسم ٢٤٠٠ ميل من سواحلها بدقة أثارت عجب كل الذين أتوا بعده ، ثم دار الى الجنوب مرة أخرى وسار يبحث عن تاسمانيا ، ولم يعثر عليها ، اذ أخطأها ، ووصل الى شاطىء استراليا الجنوبى ، ولم يكن معروفا ان هناك ارضا ، ولما وجد المرسى الأمين ، نزل علماء الطبيعة الى البر ، واكتشفوا ان كل نبات رأوه كان شيئا جديدا على العلم . وقد جلبوا الى ظهر السفينة ، عينات من أنواع كثيرة من النبات . وكانت المجموعة كبيرة جعلت كوك يضحك ويسمى المكان (خليج علم النبات) وسرعان ما وجدوا حيوان الكونجر ، وغيره من الحيوانات الكبيرة القرنية ، وأخيرا وجدوا رجال الغابات السود ... وجدوهم صامتين وقد رفضوا رفضا باتا أن يلمسوا أية هدايا من التى قدمت لهم .

ولكن ماهى مساحة هذه الأرض ؟؟؟ وللاجابة على هذا السؤال أبحر كوك ، فى أتجاه الشمال على شاطىء أستراليا الشرقى ودون أن يخطر له أنه ، دون منارات ولا عائمات للارشاد أو خرائط ، يغامر فى اخطر مياه العالم ، ولكنه وحتى بعد أن اكتشف هذا بنفسه لم تتزعزع عزيمته ، واذا كانت للحاجز المرجانى أنياب ومخالف فان عليه ان يبحر خلال تلك الأنياب الموحشة ، وقد تطلب الأمر قرنا من الزمان من الهولنديين مع الكثير من السفن التى تحطمت قبل أن يحصل الناس على فكرة غير ثابتة عن الطريق الأكثر أمنا والواقع على ساحل استراليا الشرقى .

وقد مسحت سفينة الفحم الصغيرة فى خمسة شهور كل ساحل أستراليا الشرقى الملىء بالمخاوف . وقد تعرضت للتلف المرة تلو الأخرى وصدمت مرة ، وفتح فيها ثقب ، أدخل اليها الماء أكثر مما استطاعت المضخات أن تسحبه الى خارجها . وكانت هناك اشارات من نار وضعها الأهالى لدعوة بعضهم بعضا.وذلك لمقاومة أى معتد يحاول النزول الى البر ولكن مهارة كوك البحرية نجت الـ (انديفر) من كل محاولة .

وأخيرا وفى يوم ١٩ أغسطس ١٧٧٠م ، دار كوك حول الطرف الشمالى الشرقى لأستراليا ، وبالسيف والقلم استولى على الأرض التى اكتشفت باسم الملك ، وشربت أنخاب الملك والقيت الكؤوس فى البحر ، ثم أبحر كوك عائدا الى الوطن مكتشفا جزءا

كبيرا من ساحل غينيا الجديدة . وقد امتلأ قلبه فخرا وعجبا اذ القى مراسيه فى ميناء جزائر الهند الهولندية الشرقية،ولم يكن قد فقد رجلا واحدا نتيجة لإصابته بالاسقربوط ، بل لم يكن هناك مريض واحد ولو لمدة يوم واحد بسبب هذا المرض ، ولكن بمجرد أن دخلت السفينة الى المستعمرة المتحدية،وما أن سمح للبحارة بالنزول الى البر حتى تساقطوا مرضى من الزكام والتيفوئيد والملاريا وغيرها من الأمراض الميكروسكوبية التى تنتظر كل بحار ساذج العقل على البر .

وفى يوم ١٤ يوليو ١٧٧١م . أى بعد سنتين وتسعة شهور وأربعة عشر يوما وصلت (الانديفر) الى انكلترا وقد كتب كوك تقريره الى الأدميرالية وتمنى بتواضع أن تقدم يومياته معرفة معقولة عن الأماكن التى كتبت عنها ، وقال ان الاكتشافات التى قمنا بها ولو أنها ليست عظيمة الا انها عذر يبرر طول الوقت الذى استغرقته الرحلة،وكان فى الواقع قد اضاف جوهرتين ثمينتين الى التاج البريطانى . وهما استراليا ونيوزيلاند . ورسم خريطة لأخطر البحار،وأبعدها فى العالم ووجد الطريق بما اتخذه من احتياط ضد الاسقربوط الى نجاة حياة عدد من البحارة اكثر مما فقدت إنجلترا فى حروب نابليون . وكانت كتابة كوك فى يومياته قطعة من الأدب الرفيع عن رحلات البحارة .

وقد حث نجاح كوك فى اكتشافاته فى الرحلة الأولى الأدميرالية على إرساله مرة ثانية فى سنة ١٧٧٢م . ليبحث فى جنوب المحيط الهادى عن قارة فكر الناس أنها موجودة هناك على خطوط عرض مرتفعة . وارتفق كوك سفينتين الـ (ريزولوشن) والـ (أدفنتشر) وهما مثل الـ (أنديفر) وسارت السفينتان .... احيانا معا وأحيانا منفردتين لمدة أسابيع وشهور . وقد أبحرت السفينتان فى مناطق القطب الجنوبى لمسافة عشرين الف فرسخ ، من أكثر مناطق العالم وحشة .

وعبر كوك خط القطب فى يناير ١٧٧٣م . وكان هناك الوقت صيفا ، ثم بالتدريج أوغل الى درجة ٧١ وعشر دقائق ، على خط العرض الجنوبى . وكانت فى تلك الأيام هذه المنطقة أقل مابلغه الانسان جنوبا . وقد وجه سفنه الخشبية ، تحديا جبال الجليد الجبارة على غير هدى وقد دار مبحرا للمرة الأولى فى التاريخ حول رأس الجليد فى القطب الجنوبى ، وقدأدار البوصلة من رأس الرجاء الصالح ،وجنوب أفريقيا خلال المحيط الهندى،وجنوب المحيط

الهادى الى رأس القرن وجنوب المحيط الأطلسى راجعا الى مدينة الكاب . وخلف حاجز من جبال الجليد الواقعة على شواطئه تقع القارة (انتكاركتك) ولم تكن منظورة،ولكن كوك قدر وجودها . وقد أطاح كوك والى الأبد بالخرافة القائلة بوجود قارة يسكنها الجن .

ووضع كوك أراضى حقيقية على الخريطة،وقد وضحت لأول مرة وبدقة بالغة ، على الخريطة أيسترايلند وهى أقصى أرض الى الغرب من كل جزائر البحار الجنوبية . والماركيز والتونجا أو جزائر فرندلى . وفى شمال شرق استراليا اكتشف اكتشافا جديدا ... اكتشف جزرا كبيرة مثل كالدونيا الجديدة ونورفولك،وفى جنوب الأطلسى اكتشف ثانية مايعرف الآن بجزيرة جنوب جورجيا واستولى عليها لبريطانيا العظمى .

وقد استغرقت الرحلة الف يوم ، واذ كانت كلها فى حقول الثلج فى مناطق القطب فقد كانت اكثر الرحلات خطورة ، على تكللها بالنجاح . ولكن جيمس كوك ، كان مخلوقا غريبا ، فقد أبحر كطائر بحر بلا خوف وسط العواصف والأنواء والجليد . وحيثما توقف فى الجزائر الاستوائية ، وسواء أكان بين آكلى لحوم (البشر او بين انصاف المتمدنين فانه وقف امامهم،وتصرف دائما تصرف الرجل الشريف ، وكان يكسب القلوب باستقامة خلقه وبصداقته المخلصة ، ولما كان يجد نفسه فى مأزق كانت قوته الهائلة،وشجاعته يضعانه فى مكان الزعامة الذى يستحقه،وقد حدث مرة ان تصدى له عربيد يحمل هراوتين ، واحدة فى كل يد ، وكان كوك غير مسلح،ولكنه هجم على الرجل،وجرده من هراوتيه وكسرهما على فخذه .

وكان رسول الملك جورج فى كل المناسبات يحاول أن يؤثر على الأهالى وأحيانا كان يسير رجاله المسلحين فى صفوف حول أية جزيرة ، اذا رأى من أهلها أى روح عدوانى ... واذا رفض أحد الرؤساء الحضور لمقابلته ، كان هو يقتحم الطريق الى الجزيرة رغم الحر والغابات والبعوض،وبذلك كان يشعر خصمه ، بالشدة حينا وباللين أحيانا ، ان ذراع الملك قوية وطويلة .

وكان يهتم بتعليم الناس احترام العلم البريطانى،فيحملهم على الإعجاب باطلاق المدافع من سفينته تحية لهم .

وكإنسان انجليزى طيب كان يستحم كل يوم على الشاطىء ، وكان فى سلوكه مع النساء الوطنيات ، يمثل النموذج الرفيع للوقار البريطانى . ولم يكن يتردد فى انتهار الأهالى

اذا ساءه سلوكهم الأدبى أو طريقتهم فى الأكل أو أسلوبهم فى معاملة أعدائهم ، أو اذا لم تعجبه معتقداتهم الخرافية أو اهمالهم فى أمور النظافة ، أو اذا رأى انحطاط مستواهم فى الأمور المتعلقة بالشرف ، وحيثما ذهب كان يحاول ان يوجد فى الجزائر الأبقار والغنم والماعز والخيل والارانب والبط والاوز والفراخ ، ولكن الكل نفق أو أكل لأن الأهالى لم يكونوا مقتنعين بترك أكلة شهية تنطلق الى الغابات حيث يصعب امساكها مرة أخرى واما الماعز والأرانب فقد انطلقت وتكاثرت على حساب زراعة الأهالى،وقد زرع كوك ، وحيثما ذهب الخضروات الاوروبية والحبوب أينما وجد الأرض المناسبة ، ولكن الأهالى أكلوا العنب وهو أخضر، وربما عزفوا عنه باعتقاد أنه سام ، وداسوا العرائش وكأنها حشرات سامة . اما اولئك الذين علمهم أن يعلموا مواطنيهم ما هو أفضل،فقد بادلوا ملابسهم الاوروبية وأدوات العمل بالارض والنساء وأكلوا لحوم البشر،رفضوا ان يفضلوا البقر المطهو وفطائر يوركشير على لحم عدو سمين .

وكان كوك ينتظر ويرى بخياله اليوم الذى تعبر فيه تجارة العالم المتمدن البحار البعيدة التى كان اول من رسمها على الخرائط ولكن حتى كوك لم يكن يتصور مقدما مقدار ما ستصل اليه النتيجة أو مقدار كمالها . وعلماء علم الانسان وعلماء الفنون حينما يقرأون من الفردوس الصافى الذى وصفه كوك يصرفون باسنانهم كمدا حيثما يفكرون فى الموسيقى والشعر الوطنى والحفر والنسيج وصناعة الخزف والعادات والمعتقدات والتطبيقات والتقاليد وكلها تغيرت الى الأبد بواسطة تأثير النفوذ الاجنبى،وقد ضاع اكثر من نصف قيمها جميعا .

ولكن ذلك البحار كوك ، قام بعمل مجيد اذ سجل ما رأى ، وكما فهم الأشياء حينئذ وفى العصر الذهبى للبحار الجنوبية،وقد أحضر معه للمتحف البريطانى كمية من الفن الوطنى بقدر مامكنته ظروفه . وبرغم كل ماصدمه من توحش الوطنيين الاهالى فقد قدر الرجال الشجعان واثنى عليهم،وكذلك النساء اللائى اظهرن الشفقة والاذكياء من الناس وقد كتب كل هذا فى صفحات تدخل فى ادب اللغة الانجليزية من اوسع الأبواب .

وفى سنة ١٧٧٦م أبحر كوك للمرة الثالثة من انجلترا بسفينتين (روسولرشن) و (دسكافارى) وكانت أوامر الادميرالية ان يكتشف المضيق الذى بين الاسكا وسيبيريا وأن يحاول اكتشاف طريق للمرور حول الطرف الشمالى لشمال امريكا الى المحيط الأطلسى

ونحن نعلم اليوم ان الرأس القطبى المتجمد يجعل هذا مستحيلا،ولعل كوك قد قدر هذا ، ولذلك فقد أبحر شمالا بحذاء ساحل اورويجون فى ربيع عام ١٧٧٨م . والى خلجان الاسكا،وكان يدخل بسفينته الى كل مدخل ، والكثير منها غير معروف للرجل الأبيض ، وقد اخترق مضيق بيرنج الى آخر طرف فى الاسكا،وتوغل فى حقول الثلج حتى وصل الى درجة ٧٠ ـ ٤١ دقيقة فى خطوط العرض الشمالية،ولم يستطع السير أبعد من ذلك ولو ان الوقت كان وقت الصيف القطبى وقد برهن على ان الممر الشمالى الغربى حول القارة الامريكية لم يكن من الممكن استخدامه كطريق عادى للسفر بحرا .

وفى طريقه الى الشمال فى أوائل ١٧٧٨م . اكتشف كوك اكتشافه العظيم الضخم وهو جزائر هاواى أول ما رأى منها هو جزيرة هاواى نفسها وبعد ذلك اوهو كووبى.ومالم تكن هذه الجزر قد عرفها بعض المستكشفين الأسبان فان كوك يعتبر اول من عرفها من الاوروبيين وقد تذكر كوك تلك الجزائر ورقة وذكاء اهلها وجمال بلادهم وما بها من زهور عبقة ثم ابحر كوك تاركا ثلج القطب إلى الأرخبيل المشمس.وكان كوك متعبا جدا ولو انه كان مازال فى الواحدة والخمسين من عمره ، الا انه كان قد عاش حياة ملؤها المصاعب والمتاعب وحتى اعصابه القوية وجسده المتين القوى ظهر عليهما أثر الارهاق فى رحلته الاخيرة . وكان بحارته ـ بالتأكيد احسن مجموعة صاحبته فى كل رحلاته . وكان الجزء الاكبر منهم من البحارة الذين صاحبوه فى رحلاته الاولى.ومنهم الملاح المشهور وليم بلاى من بحارة السفينة بونتى،وضابط شاب اسمه جورج فانكوفر الذى اصبح فيما بعد مكتشفا لساحل امريكا الشمالى الغربى .

وكان كوك ربانا فذا متفوقا يعرف كل شىء عن علم الملاحة،وكان لغويا عالما بلغات البولينيز وبلغات اخرى من لغات المحيط الهادى وكان عالما طبيعيا ممتازا،ولم يستصحب عالما طبيعيا معه فى رحلته الأخيرة وكان طويلا فى علم الفلك .

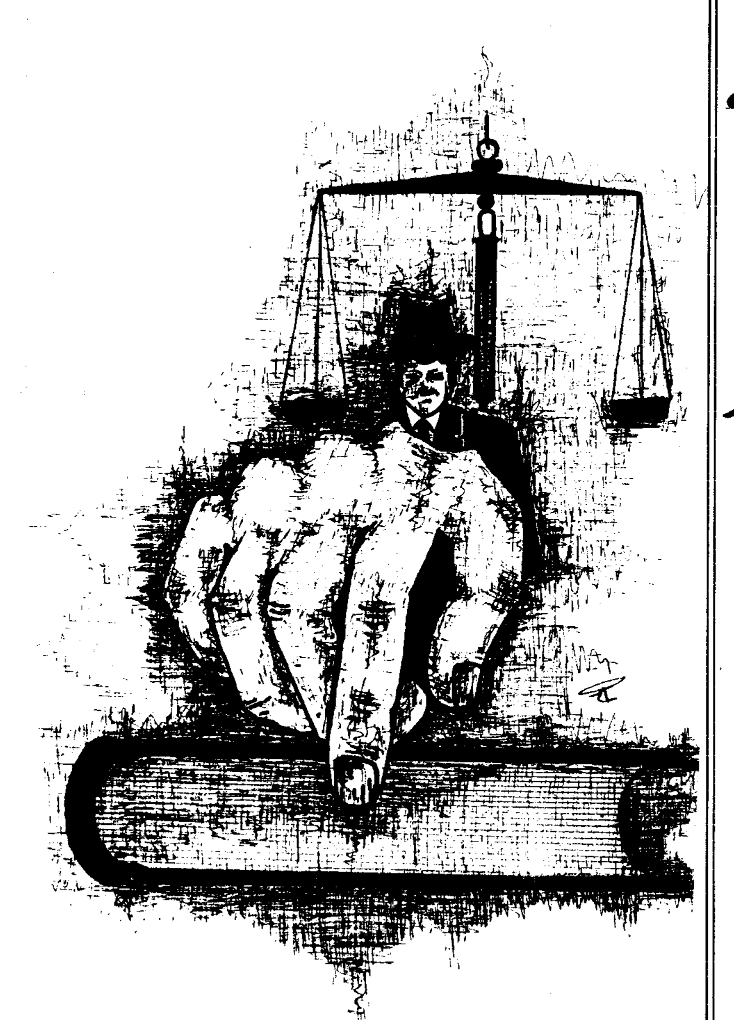
وقد بدا عليه بعض الضيق فى هذه الرحلة وأصبح حكمه على الأشياء غير مستقر ، وقد وصل جزر هاواى فى نوفمبر ١٧٧٨ وكان رجلا محتاجا الى استقبال به صداقة ومحتاجا الى راحة طويلة .

وظهر من أول الامر فى اتجاه الأهالى ما أزعجه ... قطعا لم يكنوا أو يظهروا عداء بل كانوا فى الحقيقة أكثر من أصدقاء ... وقد شعر بالأسى اذ وجد انهم يحسبونه ورجاله آلهة .

وفى يوم ٤ فبراير ١٧٧٩م . قامت عاصفة هوجاء فى خليج كيلاكيو. وقد انتزعت الصوارى ومزقت القلوع الى قطع صغيرة ولما انتهت العاصفة وجد كوك أن الشواطىء ليس عليها أحد، وهذا لأن الآلهة لم يكونوا سوى بشر، ومراكبهم خاضعة لعوامل الطبيعة مثل بواخر الآخرين وقد أمر رئيس الكهنة أن تعتبر المنطقة محرمة ، وبعد ذلك سرقت قوارب السفينة وسكوافرى ثم وجدت محطمة على الساحل حطمها الأهالى للحصول على مابها من مسامير. واختار كوك عوضا عن الرحيل بحذر أن ينزل مع جنوده الى البر ليستولى على التعويضات قهرا لأنه أعتبر أن المسألة خاصة بالقانون الأدبى وقد أطلق بعض الجنود النار تسرعا وقتلوا زعيما وطنيا صديقا، وكان لحظة اشتباك على الساحل، واذ التفت كوك ليصدر أمرا أصيب من الخلف بضربة على رأسه. وحاول أن يقف خارج الماء ولكنه طعن بالحراب فى ظهره . وعند غروب شمس يوم ١٥ فبراير. وبين طلقات المدافع الصغيرة ، أنزل الى البحر جثمان رجل يعتبره التاريخ أعظم من مخر عباب البحر .



الخدعة التي جازت على هتلر



الخدعة التي جازت على هتلر

كان هتلر ، يعلم أن قوات الحلفاء تدبر خطة النزول فى أوروبا ، ولكن ما كان يشغل قادته هو تحديد النقطة التى سيختارها الحلفاء ، لغزوهم المقرر .

وكانت (هونى) الشقراء الجميلة الفارعة ، طعما جديدا ، كثيرا ما أوقع كبار الضباط ، فى مصايد الاستخبارات الألمانية ... كانت تستطيع أن تجعل أشد العسكريين تحفظا، وحرصا على الاسرار ، يتكلمون ، ويفضون اليها بما يبحث عنه الألمان من أسرار .
وفى ربيع عام ١٩٤٤م ، اكتشفت هذه الشقراء الجميلة ، سرا ، أعجل ما فيه أنه كان خدعة بارعة ، لم ينظمها الالمان فى هذه المرة ، وإنما أعدها الحلفاء ، ببراعة ودقة ، جعلت الألمان يحولون أنظارهم الى الأراضى الهولندية ، باعتبارها منطق الغزو المنتظر .
سبق لهذه الشقراء ، أن كانت فى الجزائر ، واستطاعت أن تصطاد ضابطا أمريكيا ، أفضى اليها بأن الحلفاء سيغزون صقلية ، فما كاد جنود الحلفاء يهاجمون الجزيرة ، حتى انقضت عليهم قوات الألمان ، وكأنها على موعد معهم .

وتبدأ قصة (هونى) ، عندما تلقى (ستيف) من رجال الجاسوسية البريطانية ، رسالة ، ظل ينتظرها عدة شهور ، تقول:ان (هونى) الشقراء ، قد تركت برلين خلال الأسبوع الماضى ، الى جهة غير معلومة ، وتأكد الخبر الذى جاء فى الرسالة ، عندما جلس معه أحد صغار الضباط ، وأخذ يقول : إن الفتاة موجودة فى لندن ، وقد علم من رائد فى المجموعة أنها تعمل مترجمة وتقابل الرائد كل يوم .

والعجيب أن (هونى) كانت تعمل مترجمة فى إحدى دوائر الاستخبارات البريطانية ، ولكن لايدرى أحد كيف جاءت ولا كيف استطاعت أن تعمل مترجمة فى إحدى دوائر الأسرار .

ومنذ هذه اللحظة بدأ العمل فى تدبير أعظم خدعة يكاد لايصدقها العقل ، شملت فى حلقاتها كبار قادة الحلفاء كايزنهاور ، وتشرشل ، والقائد دونجن ، كما شملت التصميم على التضحية بحياة رجلين ، وبالمستقبل العسكرى لضابط أمريكى كبير ، وكان المبرر الذى قرره المختصون ، أن هذه هى الطريقة الوحيدة لانقاذ حياة الآلاف من قوات الحلفاء .

فى شهر مارس عام ١٩٤٤م ، كان الحلفاء يضعون مخططهم لغزو أوروبا ، وكان الجو مفعما بالتكهنات ، وقد قرر القائد (دونجن) أن تكون (هونى) هى الخيط الذى يبدأ به حياكة مخططه الخطير .

وكان (ستيف) على يقين من أن (هونى) تستطيع اذا أتيحت لها نفس الفرصة ، التى أتيحت لها مع الضابط الامريكى فى الجزائر، أن تقدم للحفاء من حيث لاتشعر ، الخدمة التى يريدونها لاتمام خطة الغزو .

وكان همهم ، هو العثور على الرجل الذى يستطيع أن يجذبها اليه ، بحيث ترى فيه مصدر الأسرار التى يهمها أن تحصل عليها .

وتقرر اختيار الرجل الذى سيكون مجرد دمية ، ولايعرف أنه دمية ، أى أنه يزود بأسرار كاذبة من خطة الغزو ثم يلقى به فى طريق (هونى) ، لتصطاده ، وليفضى اليها بأسرار تبعث بها الى المانيا ، وبذلك تتم الخدعة التى يتوقف عليها نجاح خطة الغزو ، ومعنى هذا أن واحدا من أفضل الضباط ، ومن أكبرهم مركزا سيستدرج الى موقف يخون فيه وطنه ويفضى بأسرار لفتاة من الأعداء ، وإن كانت الخيانة والافضاء بالأسرار ، والعملية كلها تدبيرا محكما للوصول الى الغرض الكبير .

وكانت مواصفات الرجل المطلوب ، هى ان يكون ذكيا ، تشعر (هونى) بوزنه ، وتثق به دون تردد ، وأن يكون فوق ذلك من الرجال الذين سبق لهم ، أن قاموا بمهمات خطرة ، خلف خطوط الأعداء ، وأخيرا وهو الأهم أن يكون شخصاً مشحوناً بعاطفة تميل الى (هونى) وتجعله ينجذب اليها ، الى حد يضحى بأسرار وطنه وجيشه .

وعلى هذا فان خطة (ستيف) لو نجحت ، تعتبر خدعة من أكبر الخدع ، وتجعل جميع الخطط التى وضعتها استخبارات الحلفاء ، كأنها لعب أطفال بالنسبة لها .

تتلخص خطة ستيف فى إقناع (أدولف هتلر) وأركان حربه ، واستخبارات الألمان ، بأن غزو الحلفاء سيكون عن طريق (هولندا) فإذا استطاع أن يقنع النازى ، ولو جزئيا ،

أن ضربة الغزو ستأتى من الأراضى الواطئة ، فان هذا يعنى ان ينقل الألمان جنودهم ، ومعدات حربهم الى تلك المنطقة ، التى تبعد عن منطقة الغزو الحقيقية ، التى لايعرفها الا القليل من كبار الرجال ، فى قيادة الحلفاء .

وبعد تفكير لم يطل كثيرا ، بين (ستيف) وزميله (سوتارو) تم الاتفاق على الرجل المنشود ، وهو ضابط سبق له أن قام بثلاث مهمات خطرة وراء خطوط الأعداء ، وسنشير اليه من الان باسم (دان راسل) .

فى تمام الساعة السادسة من مساء اليوم التالى ، تلقى (راسل) بطاقة دعوة الى حفلة معينة ، كان قد هيأها (ستيف) و (سوتارو) بدقة وإحكام ... ومع أن الحفلة كانت مهيأة لاداء غرض محدد ، فقد ظهرت وكأنها طبيعية ليس فيها أى أثر للافتعال. كانت الموسيقى ناعمة ، وكان الجو حالما ، وكان (ستيف) وزميله ومجموعات أخرى قد تناثروا فى الحفلة ، وما هى الا لحظات حتى وصلت (هونى) الشقراء ، تتأبط ذراع الرائد الذى تقابله كل يوم . ولم يكن (راسل) قد وصل بعد ، ولاحظ (ستيف) أن عينى (هونى) قد اكتسحت المكان ، وتركزت عليها الأنظار ، بحيث لم يبق فى القاعة من لم يأكلها بعينيه ، وجلست (هونى) مع زميلها الرائد تتحدث وتبتسم ، ومرت بضع دقائق قبل أن يتطفل عليهما (ستيف) بتحية عابرة ، كان فيها مايشعر بأنه قد بدأ تنفيذ خطته بدهاء .

أما الضابط الدمية (راسل) فقد دخل دون ان يشعر به أحد كان قد تخطى الثلاثين من العمر ، فارع القامة ذو شعر أسود متموج ، ولعله كان يختلف عن الكثيرين ، بما يبدو عليه من الاحتشام والتحفظ احتراما للدرجتين الجامعيتين اللتين يحملهما ، وهو يتكلم الفرنسية بطلاقة ، يحب الفنون والموسيقى ، ويمتاز بذوق هادىء ، وروح وديعة سريع الألفة ويحسن اختيار الأصدقاء ، وفى الوقت المناسب قام (جونى) أحد مساعدى (ستيف) ومشى نحو الشقراء وبعد تحية قصيرة ، وكلمات عابرة مع زميلها الرائد ، قال يخاطب (هونى) ـ ترى هل تعرفين ذلك الفتى ، الذى يجلس وحده هناك .

وهزت (هونى) رأسها متسائلة ، وعلى وجهها ابتسامة مشرقة ، وقبل أن تقول كلمة ، قال (جونى) لو ترك الأمر لى فإنى أتمنى ألا تعرفيه أبدا ... وحين ابتسمت متسائلة ، أضاف (جونى) قائلا ، لم ار فتاة رأته واستطاعت ان تبتعد عنه ، وهو أحد كبار رجال الاستخبارات ، وقال فى صوت هامس ، أرجو الا تعرفيه .

ولكن قبل ان تمر عشرون دقيقة ، كان (ستيف) يرى فى المرآة التى يقابلها ، وظهره الى القاعة الكبيرة ، (هونى) و (راسل) يتحركان برقة ونعومة ، على أنغام الموسيقى الراقصة الرقيقة ، فهتف (ستيف) لقد قطعنا مرحلة، ولاشك ان الخطة التالية ، ماتزال فى يد القدر ، وبانتهاء السهرة كان (راسل) و (هونى) يستقلان سيارة اجرة الى منزلها ، وكان هناك من يتعقبهما ، ويقيد كل تصرف من تصرفاتهما ، ولم يدخل (راسل) مع هونى الى منزلها ، ولكن كان ظاهرا من حفاوتها به ، وهى تودعه عند بابها ، أنها قد وجدت فيه صيدها الكبير .

ووضع تليفون (هونى) تحت المراقبة ، وبدأت سلسلة اللقاء تتوالى بين (راسل) و (هونى) ، فى أماكن كثيرة حيث كانا يقضيان أوقاتا طيبة ، ولكن لم يكن بين هذه الأماكن ، منزل (هونى) الشقراء ، الا فى مرة واحدة ، عندما رجعا من سهرتهما ، قبيل الواحدة بعد منتصف الليل ، فقد دخل (راسل)منزل الشقراء ، ولكنه سرعان ما خرج بعد ثمانى دقائق .

وتفتق ذهن (ستيف) عن خطة اكثر دهاء ، الغرض منها إقناع (هونى) بأن صاحبها من أهم رجال المخابرات ومن أكثرهم الماما بالاسرار ، وكانت الخطة أن يوفد (راسل) فى طائرة تحلق فى سماء فرنسا ، ثم يسقط منها (بمظلة نجاة) حيث يتصل بفرنسى معين ، من رجال المقاومة السرية فى فرنسا ومن شأن هذه الخطة أن ترفع (راسل) الى مستوى يجعل (هونى) تهتم به كثيرا ، كما يجعل برلين ، تعتقد أن صيد (هونى) ، صيد ثمين جدا يمكن الأعتماد على الأسرار التى سيفضى بها اليها ، واستطاع (ستيف) أن يعطى العملية جميع مظاهر الجدية والصدق بحيث لم يشك (راسل) أنه يؤدى مهمة من أعظم المهام ، وان لم تكن هذه المهمة فى الواقع ، الا جزءا من مخطط (ستيف) لتنفيذ عمليته الدقيقة ، لخدعة الالمان من موقع الغزو المقرر .

ونفذ (راسل) مهمته على أدق وجه ، وتلقى (ستيف) من عملائه فى فرنسا ، أن هبوط (راسل) قد تم وقد علم به الالمان ، ولكنهم أصدروا تعليماتهم بألا يتعرض له أحد ، وأن يتركوه يعود الى إنجلترا بسلام .

ولم يكن (ستيف) محتاجا الى مايؤكد له أن هذه المعلومات قد وصلت الى الالمان ، عن طريق (هونى) الشقراء ، وأنها قد استطاعت أن تصطاد فعلا رجلا من أشد الرجال تمتعاً بثقة مرؤوسيه .

ومع الابتسامة الحزينة ، التى ارتسمت على شفتيه ، كان يشعر بالكثير من الاعتزاز ، لأن خطته قد بدأت تنجح فعلا ، أمضى (راسل) خلف خطوط الأعداء ، خمسة أيام ، كان (ستيف) خلالها يحكم خطته ، التى أصبحت جزءا من سياسة القيادة العليا ، وكان لابد لاقرار تنفيذها من موافقة الجنرال (ايزنهاور) وكانت المشكلة الرئيسية التى تواجه (ستيف) . هى الطريقة التى يستطيع بها أن يقنع (هونى) عن طريق (راسل) بأن غزو الحلفاء ، سيكون من هولندا وليس من اى مكان آخر ، وكان يعلم أن مجرد معلومات يفضى بها (راسل) ، الى (هونى) الشقراء ، لاتكفى باقناع الالمان بأن الحلفاء يغيرون خطتهم ، التى كان الكثير منها معلوما لدى الاستخبارات الالمانية ، وعلى هذا فإن (ستيف) قد قرر ، أن يقنع الهولنديين أنفسهم ، عن طريق المقاومة السرية الهولندية ، بأن بلادهم ستكون هى منطلق الغزو على قوات الالمان . ووضع (ستيف) جميع تفاصيل خطته ، فى تقرير قرر أن يعرض على القيادة العليا للحلفاء . وسرعان ماتلقى الموافقة على خطته ، وبدأ تنفيذ الخطة فعلا ، الى حد جعل الكثيرين يعتقدون أن هولندا قد اصبحت منطلق الغزو المنتظر ، ولكن هؤلاء الكثيرين ، لم يكونوا الا كبار الموثوق بهم من رجال الاستخبارات ، الذين يتعذر أن تتسرب منهم أية معلومات الى العدو بأى شكل من الاشكال .

كان (راسل) مايزال هو الرجل الذى وقع عليه الاختيار للافضاء بالاسرار ، التى ستقوم (هونى) الشقراء بايصالها الى الألمان .

وفى يوم من أيام مايو الأولى ، كان (ستيف) و (راسل) يقومان برحلة فى سيارة فى الخلاء ، وكان (ستيف) يفضى الى راسل بأسرار الخطة كلها ، بحيث جعله يعتقد أنه واحد من القلائل الذين ، يعلمون أعظم سر يحتفظ به اهم رجال العالم . اذ اصبح واحدا من الذين يعرفون ، أين سينزل الحلفاء لغزو اوربا ، وكان مما سمعه (راسل) من (ستيف) أن العملية ستكون صعبة قاسية ، وان المخابرات البريطانية ، قد لقيت صعوبات كثيرة فى هولندا ، وقد فقدت ما لا يقل عن اربعين عميلا ، إن أهم ماتهتم به القيادة ، هو الاتصال بالمقاومة السرية فى الاراضى الواطئة ، للحصول منها على معلومات ، عن قوات الألمان ، عن استعدادهم للدفاع عن الساحل ثم أردف (ستيف) والآن سأقدمك الى القائد البريطانى ، ولن يكون لك بعد هذا اليوم أى اتصال بى أو بأى شخص آخر ، الى أن

تنتهى مهمتك ، ورفع يده وهو يقول محذرا ـ لا تنس أن الأمن هو كل شيء ثم اضاف ، ان مكانك سيكون فى شارع (وار دور) وهو المكان الذى يتم فيه الإعداد للعملية ، ولكن أمامنا عقبة كأداء ، وهى إيجاد العدد الكافى من المتكلمين بالهولندية ، على أن يكونوا ممن يوثق بهم ويعتمد عليهم .

وكانت الكلمات الأخيرة ، إيحاء لم يشعر به (راسل) وإن كان قد جعل أفكاره تتجه الى (هونى) الشقراء التى كانت تدعى دائما ، أنها هولندية ، وتتكلم الهولندية ، كما يتكلم أبناؤها .

وبهذا ، تم إعداد المسرح ، وبقى أن ترى عملية الأبطال .

وكان من مستلزمات إتقان الخدعة بحيث تبدو وكأنها حقيقة لاشك فيها إطلاقا ، أعد المبنى الذى فى شارع (واردور) بحيث يبدو فى الظاهر شركة لانتاج الافلام ، ويبدو فى نفس الوقت للعاملين فى كل مكان يتم فيه الاعداد للغزو من هولندا ولم يكن أى وجه من الوجهين اللذين بدا بهما هذا المبنى حقيقة ، وإنما كانت الحقيقة هى إيهام (راسل) فى الدرجة الاولى ، ثم (هونى) بأن العملية جدية مائة فى المائة .

واستطاع (ستيف) أن يشرك فى العملية صحفيا اسمه (ماكس ديكر) ومحررا فى إحدى الصحف ، ثم عامل لاسلكى وعامل مطبعة ، وسكرتيرة هى الانجليزية الوحيدة والدكتور (مولدر) من اساتذة جامعة (لاهاى) . فقد زوجته فى غارة جوية فى بداية الحرب ولم يبق له فى الحياة الا ابنته الصبية الحسناء التى هربت معه من هولندا ، ثم كان الى جانب هؤلاء (راسل) و (هونى) الشقراء ، التى أخذت كمترجمة ... وكان كل واحد من الهولنديين قد اقتنع اقتناعا لايتسرب اليه الشك ، بأنه يعمل لأجل وطنه ، ويؤدى واجبا مقدسا لتخليص هولندا من احتلال الألمان .

وفى نفس الوقت الذى كان العمل يدور فيه فى شارع (واردور) بين هذه النخبة من الهولنديين ، ومعهم (راسل) و (هونى) والرائد (هيوارث) كان هناك أمام هذا المبنى رجال يعملون أربعا وعشرين ساعة فى اليوم يسجلون كل حركة دخول وخروج الى مبنى شارع (واردور) .

ولعل أبشع ماتم فى هذه العملية هو استدعاء زعيم المقاومة السرية فى هولندا الى انجلترا ، وتهريبه بقارب طوربيد سريع ، دون ماغرض سوى المبالغة فى الايهام

والتضليل ، بأن عملية الغزو من هولندا قد أصبحت مقررة ولا عدول عنها إطلاقا .

وحين وصل زعيم المقاومة السرية فى هولندا ، واسمه (جانن) استطاع أن يقدم معلومات ذات أهمية كبرى عن قوات الألمانيين ، وعن العاملين فى جيش المقاومة السرية ، وعن رؤساء الخلايا فى هذا الجيش ، ثم معلومات أهم عن تجهيزات الميناء فى (روتردام) والموانىء الهولندية الأخرى .

وأدرك ستيف من حصيلة هذه المعلومات ، أن الألمان مايزالون يستبعدون جدية الغزو من هولندا ، وإن كانوا قد أقاموا خطوط دفاع ساحلية ، يمكن الاعتماد عليها عند اللزوم وقال (ستيف) فى نفسه سأقنعهم ، وسأجعلهم يغيرون رأيهم على أية حال .

الأغرب من هذا أن زعيم المقاومة السرية نفسه ، ظل يستبعد اثناء النقاش أن تكون هولندا صالحة كمنطلق للغزو ولكن (ستيف) و (هيوارث) استطاعا أن يقنعاه أخيرا ، وأن يجعلاه يشتعل حماسا للفكرة .

وتقرر اعادة الزعيم الى هولندا ، بعد تزويده بكثير من التعليمات التى بدت وكأنها تخطيط دقيق ، للتمهيد لعملية الغزو ، ثم بعد أن خرج من الغرفة ، قال (راسل) الذى كان يسمع الحديث ، ما دام الرجل سيعاد الى هولندا ، فان احتمال القاء القبض عليه واعتقاله يجب ان يكون قائما ، وقال (هيوارث) وقد فوجىء بالسؤال ـ اعتقد ان هذا لن يحصل ، ولكن ماذا تقترح أن نفعل ؟؟

قال (راسل) ـ إننا نعيد رجلا الى هولندا ، ومعه أسرار بالغة الأهمية ، ونعلم ان احتمال القاء القبض عليه كبير ، ولذلك فليس أقل من ان نزوده بقرص من (السيانيد) يتناوله ويموت مع أسراره ، لئلا يعرف الالمان ما نحن بسبيله وعاد (هيوارث) يقول . كلا ... لا أرى أن هذا ضرورى ، وسيصل الرجل الى هولندا دون أن يتعرض للخطر .

وخرج (راسل) وهو يقول ـ أنت الرئيس المسؤول على كل حال ، ولكن الأمر يبدو لى غير عادل ، وليس فيه ما ينبغى من الحيطة والحذر .

وظل هيوارث بعد خروج (راسل) ، يتصبب عرقا ، وقد رأى المصير التعس الذى انتهى اليه بتدبير مسبق مصير زعيم المقاومة السرية فى هولندا ... لم يكن لديه شك فى أن

(هونى) الشقراء ستخبر الالمان بكل شيء ، وأن الالمان سيعذبون الرجل . ثم سيقتلونه رميا بالرصاص بينما العملية كلها ليست اكثر من خدعة ... وظل دون حراك فترة طويلة ، وكلمة قاتل ترن فى أذنيه ، وتغوص فى اعماقه ، وتهز كيانه كله ، ولكن ما هى الا لحظات حتى عاد يقول : هناك حياة الالوف المؤلفة من الرجال ، ثم هى الحرب وليس فيها من يستطيع ان يقول هذا خطأ ، وهذا صواب .

وبعد يومين كان (راسل) فى مكتب (هيوارث) يسمع منه أن زعيم المقاومة السرية قد قبض عليه ، فى اليوم التالى لرجوعه ، واضاف يقول : إنه لا يعرف ما الذى حدث بعد ذلك . وكانت الحقيقة أن المعلومات التى تلقاها (ستيف) و (هيوارث) تقول : إن زعيم المقاومة السرية ظل يقاوم التعذيب النازى ثمانى ساعات ثم اضطر الى الكلام وبذلك يمكن القول أن الالمان قد ابتلعوا اول جرعات الخدعة ، التى اعدها الحلفاء ، وهى ايهامهم بأن منطلق الغزو سيكون من هولندا ... ولا شك أن الرجل قد مات ، ولكن مرة أخرى هناك حياة الالوف المؤلفة من الرجال ، وهى الحرب قبل كل شيء .

وكان لا بد من تقديم ضحية أخرى ، هى فى هذه المرة (جون بيكر) رئيس الميناء الذى يسكن بقرب (روتردام) فقد استدعى من هولندا ، وقوبل فى المطار ، واخذت منه معلومات ، كان يمكن الاستفادة منها على أوسع نطاق ، ولو كانت عملية الغزو من هولندا حقيقة ، وبعد أن زود (جون بيكر) بتعليمات أخرى ، كانت تترجمها له (هونى) الشقراء ، أعيد بنفس الطريقة وليلقى نفس المصير ... العذاب ، ثم الاعتراف بمعلومات على جانب كبير من الاهمية ، توهم الالمان ان عملية الغزو من هولندا حقيقة لا شك فيها ، ومع ذلك فان أحدا لم يخبر (راسل) بأن (جون بيكر) قد مات بعد العذاب ، وبعد ان أفضى بالاعترافات المطلوبة ، وانما الذى قيل « له » ان الرجل انتحر فى الوقت المناسب بقرص (السيانيد) ، بدلا من أن يموت ، فى زنزانة من سجون المانيا .

وكان واضحا بالطبع أن (هونى) الشقراء هى التى كانت دائما تزود الالمان بالمعلومات التى يريد الحلفاء أن يزودوهم بها ، اتماما لخطة الخدعة الكبرى ... وكان (راسل) قد غرق فى حبها الى أذنيه بحيث كان يقضى معظم وقته معها ، ومع ان هذا فى حد ذاته المصير التعس (لراسل) ، اذ هو مصدر الاسرار الوهمية التى تلقفتها (هونى)

الشقراء ، وأرسلتها الى الالمان ، وكان من الممكن الوقوف عند هذا الحد ، والتفريق بين (راسل) وحبيبته ، ولكن قال (ستيف) انه لا بد من أن تستمر الخطة فى طريقها الى النهاية ، اذ بدأت المعلومات تتوالى عن ازدياد نشاط الالمان واستعدادهم الحربى فى هولندا .

وفى نفس الوقت تم تحريك ونقل ٣٠,٠٠٠ جندى الى موانىء ساحل انجلترا الشرقى بحيث بدا وكأنه الخطة الموهومة قد دخلت فى طور التنفيذ ، وليس هذا فحسب ، وإنما الذى جعل الالمان لا يشكون اطلاقا فى أن معلومات (هونى) الشقراء صحيحة مائة فى المائة ، هى الصور التى التقطها طيران الاستكشاف الالمانى لمراكب النزول الى البر ، وقد ربط أحدها تلو الآخر فى صفوف طويلة ، وفوق هذه المراكب الدبابات والسيارات المصفحة ، الى جانب ما ظهر فى الصور من المدافع وسيارات النقل المنتشرة بكميات كبيرة فى عدد من الحقول ، على الساحل الشرقى ، وكان من المستحيل أن يشك من يرى هذه الصور فى أنها حقيقية مائة فى المائة وانها معدة للاتجاه الى هولندا ، وان كانت الحقيقة المذهلة هى ، أن مراكب النزول الى البر ، كانت من المطاط ، وكان الكثير من السيارات والدبابات والعربات وحتى المدافع ، مجرد نماذج مصنوعة من الاخشاب او الورق .

وأخذت الأخبار تتوالى على قيادة الحلفاء يوما بعد يوم ، عن تحركات القوات الالمانية ، حيث نقلت فرق بكاملها للدفاع فى شمال هولندا ، وفرق أخرى بالقرب من لاهاى ، بالاضافة الى فرقة دبابات وقيادة طيران تمركزت فى وسط هولندا . وفى شمال وغرب امستردام وهذا بالاضافة الى ما لايحصى من الجنود الذين عسكروا فى مختلف انحاء هولندا ، كما سحبت أربع فرق من الجبهة الشرقية ، لتوضع على الحدود الالمانية الهولندية .

الاغرب من هذا كله ، أن هتلر لم يستطع ان يقطع بأن الهجوم سيقع من هولندا ، اذ كانت طائرات الاستكشاف الالمانية ، تحلق باستمرار لتعود بالمعلومات التى تفحصها قيادة هتلر ، والتى كانت تؤكد من جديد تجمعات الحلفاء العسكرية فى جنوب شرق انجلترا .

ظل عامل الشك قائما عند الالمان ، رغم جميع البراهين التى قدمتها (هونى) الشقراء وأكدتها صور طائرات الاستكشاف ، ولذلك فقد أراد الالمان الحصول على

معلومات من مصادر أخرى ، وكان لهم جاسوسان آخران فى لنـدن ، كلفـا بأن يقدمـا معلومات مفصلة عن (هونى) نفسهـا فى هذه المرة ، وعـن المبنـى القائـم فى شارع (واردور) .

وكان أول إنذار تلقاه الحلفاء عن تعرض عمليتهم للخطـر ، هو اختفـاء الدكتـور (مولدر) من اساتذة جامعة (لاهاى) فقد تأخر عن الحضور الى مكتبه فى مبنى شارع (واردور) ولم يتصل تليفونيا ، وحين سئل عنه فى منزله قالت مديرة المنزل إنها جاءت صباحا ، ولم تجد اى اثر للدكتور (مولدر) وابنته الشابة ، ووجدت الفراش كما هو مما يؤكد ان احدا لم ينم عليه فى الليلة الماضية ، وأدرك (ستيف) و (هيوارث) أن الالمان قد اختطفوا الدكتور (مولدر) وابنته ، وأنهم سيعذبونهما الى ان يفضيا بما لديهما وكان هذا مما يتفق مع الخدعة ويصل الى القمة فى الاتقان ، ولكن (ستيف) قال ، إنه لا يريد أن يصاب الدكتور (مولدر) وابنته بأى ضرر ، ولهذا فقد قررا أن يقيما الدنيا ويقعداها لانقاذ الرجل وابنته ، وكانا يعلمان عن الجاسوسين الالمانيين اللذين يقيمان فى لندن ، فاتجها اليهما عن طريق سكوتلاند يارد ، وبعد معركة طويلة حافلة بالمفاجآت ، قتل فيها الجاسوسان ، عثر على الدكتور (مولدر) ملقى على كرسى وهو ينتحب كالأطفال وفى الطابق الثانى من المبنى الذى عثر فيه على الدكتور(مولدر) كانت ابنته الشابة ، (ملقاة على سرير مكتوفة اليدين والرجلين ، وقبل ان يمسها أحد ، اتضح أنها ماتت منذ وقت ، دون أن يوجد أى اثر للعنف على جسدها .

وشرح الدكتور (مولدر) بعد أن نقل من مكان اعتقاله ، تفاصيل الحادث الذى وقع له ، اذ قال إن مجهولا خاطبه تليفونيا ، وأخبره باختطاف ابنته ، وأخطره بأنه يستطيع أن يراها على قيد الحياة ، اذا قابله فى مكان معين فلما ذهب الى المكان ، خير بين احد أمرين ، هما إما أن يفضى اليهم بكل ما يعرف عن خطة الغزو ، وإما أن تموت ابنته ، ثم قال وهو يبكى ... لقد رأيتها حية وليس بها شىء سوى أنها مكتوفة اليدين والرجلين ، ولكن لست أدرى كيف ماتت بعد ذلك . ولماذا ماتت إن لم يكونوا قد قتلوها ، واضاف وهو يجهش بالبكاء أنه قد اضطر الى أن يفشى جميع أسرار الغزو التى يعلمها ، وبهذا فهو يتهم نفسه ويعترف بأنه قد خان بلده دون ثمن ما دامت ابنته قد فارقت الحياة .

واستطاع (ستيف) أن يستخلص من الدكتور (مولدر) أن أحد الجاسوسين كان يحمل جهاز إرسال قوى جدا موضوع فى علبة الحلوى ، وقد نقل للالمان جميع المعلومات التى سمعها منه .

ومع أن الفتاة الشابة ، ابنة الدكتور (مولدر) قد ذهبت ضحية الخطة هى أيضا ، فقد كان (ستيف) مزهوا بنجاح خطته ، لأن المعلومات التى نقلها الجاسوس الالمانى عن الدكتور (مولدر) قدمت التأكيد الأخير الذى يقضى على شكوك النازى نهائيا ، ويجعلهم يضعون كل ثقلهم على خطوط دفاعهم فى هولندا ، مما يضمن لخطة الغزو الحقيقية النجاح المنشود .

ومع ذلك فقد كان لا بد لقيادة الحلفاء ان تستمر فى خطة التضليل ، الى آخر دقيقة ، بل وحتى بعد النزول فى (نورماندى) وهى منطلق الغزو الحقيقى ، وذلك ليظل الألمان موزعى القوى بين جبهتين ، تبدو كل منهما وكأنها منطلق الغزو المنتظر .

وفتح (ستيف) احد ادراج مكتبه ، واخرج ملفا وضعت فيه التفاصيل الدقيقة لخطة الغزو المتكاملة عن طريق هولندا بحيث لا يمكن ان يشك من يطلع عليها من الألمان فى انها هى الخطة المقررة .

وفكر (ستيف) فى الطريقة التى يستطيع بها أن ينقل هذا الملف من خزانته الى أيدى الألمان ، ولم يكن يشك فى أن (هونى) الشقراء هى الوحيدة التى ، تستطيع ان تقوم بهذا الدور ، دون ان تشعر بشىء ... ولم يضيع (ستيف) وقتا ، اذ طلب من (هيوارث) أن يجمع له جميع من يعملون فى مبنى شارع (واردور) وبينهم (هونى) الشقراء ، وحين اجتمعوا فى مكتبه ، كان يحمل غلافا ضخما مليئا بالاوراق ، وضعه على المكتب بحرص ، يوحى بأهمية ما فيه ثم أخذ يتكلم ، فأعلن شكره للجميع على العمل الشاق والمجهود الكبير ، الذى بذلوه خلال الاسابيع الماضية ثم قال : ان النهاية تقترب ، وقد حان الوقت لتجهيز تعلياتنا النهائية ، وعلينا ان نطبعها خلال أربع وعشرين ساعة منذ الآن ، ولذلك فلا بد من البقاء هنا طيلة الليل .

وبحركة بدت ط[illegible]ية جدا ، اتجه نحو الخزانة وفتحها وهو يتحدث قائلا : أفضل ان نخرج جميعا الآن [illegible] العشاء ، حيث نبدأ العمل فى التاسعة ، وبعد أن أغلق باب الخزانة على الغلاف [illegible]خم ، وأدار المفتاح فى القفل ، وحين كان الموظفون يغادرون

المكتب ، التفت (ستيف) الى (راسل) وهو يقول : إن لدى مما أود أن اتحدث اليك عنه أرجو أن تصاحبني ، وحين وقف (راسل) استاذنت (هونى) فى الخروج وهى تقول: انها ذاهبة للاستحمام وتناول بعض الشطائر ، ثم تعود .

وبعد أن ذهبت (هونى) الشقراء ، خرج (ستيف وراسل) وظلا يمشيان فى الشارع ويتحدثان عن هذا الشأن أو ذاك ، الى أن قال (راسل) الواقع يا (ستيف) ان عندى شعورا مضحكا منذ مدة طويلة ، وهو أنه استبعد أن تنزل قوتنا فى هولندا ، رغم كل ما تم لتدبير خطة الغزو ، وأضاف أنه مجرد شعور عام أن أحدا لا يشاركنى فيه ولم اتحدث به لأى انسان ، ولكنه مع ذلك ما يزال يلازمنى حتى هذه اللحظات .

كان قلب (ستيف) يكاد يقفز من صدره هلعا ، ولكنه استطاع ان يتجلد واطمأن أخيرا ، عندما تأكد أن (راسل) يتحدث عن مجرد شعور ، لا يرتكز على أية معلومات يمكن ان يكون قد أفضى بها الى (هونى) الشقراء .

وظل (ستيف) يستدرج (راسل) فى المشى ، فى الشارع ويتحدث اليه فى عدد من المواضيع التى استطاع أن يجعلها تبدو هامة ولا يفضى بها لاحد سوى راسل باعتباره الرجل الموثوق به .

اما (هونى) الشقراء فما كادت تخرج من المكتب حتى ذهبت الى احد المطاعم القريبة منه ، واكلت شطيرة فعلا ثم القت نظرة الى حقيبة يدها ، للتأكد أن فيها كل ما تحتاج اليه ، وهو مفاتيح الخزانة التى سبق أن صنعتها منذ أسابيع من قالب شمعى ، وعلبة كبريت بداخلها آلة تصوير صغيرة وعلبة حلوى صغيرة ، تحمل جهاز إرسال قوى ، يتيح لها الاتصال ببرلين رأسا ، وبعد مضى نصف ساعة عادت الى المكتب بعد أن تأكدت أن كل شيء قد أعد ، وحين دخلت المبنى كانت تبتسم ابتسامة التفوق والانتصار التى سجلتها عدسة تصوير سينمائى وضعت خصيصا لتسجيل حركاتها دون أن تشعر .

وفى الساعة التاسعة ، عاد (ستيف) و (راسل) الى المكتب حين كان كل واحد منهمكا فى عمله ، وراء مكتبه باستثناء مكتب (هونى) الشقراء ، الذى لم يكن يشغله أحد .

دخل (ستيف) غرفته مسرعا ، وفتح الخزانة وتنفس الصعداء ، وهو يرى أن الغلاف الضخم ليس فى مكانه ، فقد نجحت خطته واستطاعت (هونى) الشقراء ان

تأخذه ، ولم يكن لديه شك فى انها الآن تغادر بريطانيا ، وفى اعتقادها انها قد وضعت يدها على اعظم مخطط تخدم به بلادها خدمة لم يسبق لها مثيل قط .

كان رجال المخابرات وراء (هونى) الشقراء وهى فى المحطة وكان أحدهم معها وهى فى القطار وسيظل معها آخرون الى أن يروها تبارح البلاد بسلام وفى الظلام كانت تمشى [هونى] الشقراء الى الساحل المهجور ، حيث كان قارب من المطاط ينتظرها ، وظلت العيون ترقبها وهى على هذا القارب ، يجدف بها رجلان ثم يقفان عند غواصة ظهرت على بعد مائتى ياردة من الشاطىء . وما هى الا لحظات حتى كانت الغواصة تدير محركاتها وتغوص فى البحر .

وفى الوقت الذى كانت الغواصة الألمانية تغادر بصيدها الثمين مياه الشاطىء الانجليزى ، كان (راسل) يدخل على (ستيف) مهتاجا ثائرا وهو يقول : لست أدرى أين ذهبت (هونى) وليس لها عادة الغياب فى مثل هذا الوقت ، ولكن (ستيف) هدأ من ثائرته ودخل به مكتبا آخر وكشف له جميع فصول المسرحية التى كان هو بطلها دون أن يدرى شيئا . واتى يوم الغزو ، حيث نزل جنود الحلفاء فى (نورماندى) يوم السادس من يونيو ، ولا شك ان مئات الالوف من قوات الحلفاء قد نجت من الموت نتيجة لاهتزاز خطة الالمان فى الدفاع ، ولتوزيع قواتهم بين شواطىء فرنسا وهولندا ، اذ لم يكن من السهل ان تتغير استراتيجيتهم فى يوم واحد ، وان يعيدوا الى الشاطىء الفرنسى جيش القوات التى سبق ان نقلوها الى هولندا ... ونجح الغزو بالطبع وكانت بداية النهاية ... وسقط الرايخ الذى كان هتلر يؤكد انه سيعمر ألف سنة على الاقل .

وفى اللحظات التى كان فيه الغزو على (نورماندى) يكشف للالمان الخديعة الكبرى التى جازت عليهم كان رجال الاستخبارات يقدمون (هونى) الشقراء للمحاكمة ثم يحكمون عليها بالاعدام قتلا بالرصاص .

اما (راسل) قد ظل يحمل أحزانه وقتا طويلا ، حتى بعد عودته للولايات المتحدة ، ورغم انه منح وساما لاشتراكه فى مخطط الخدعة الكبرى .

قال تشرشل ، بعد ان نجحت خطة الغزو فى (نورماندى) ـ ان الخديعة التى قمنا بها كانت احتياطا بارعا ، افدنا منه قبل الغزو وبعده ، وكان لها اعظم تأثير على معارك النصر الأخيرة .

أبطال على الرصيف



أبطال على الرصيف

قد لا تكون هناك ظاهرة أكثر شيوعا ، وفى نفس الوقت أكثر صدقاً من أن نصف البشر فى العالم يجهلون كيف يعيش النصف الآخر منهم .

وقد درجنا على عادة الاهتمام والتأثر لما يصيب المشاهير ، والعظماء وموفورى الحظ من الجاه والثراء ، وقد نذهب الى حد تضخيم الأحداث التى يتعرضّون لها ، فنضفى على مصابهم الكثير من التفجّع والأسى .. ما أكثر ما نتلهّف على أخبارهم ، ونتابع مراحل الخطر الذى يقال لنا انه محدق بهم .. وليس من شك فى أن لذلك كله أثره فى نفوسهم ، إذ ليس أمتع من أن يشعروا بتعاطف الناس معهم ، ومشاركتهم لآلامهم ، والتفافهم حولهم بعواطفهم الدافئة ومشاعرهم الطيبة .. فلا عجب أن نسمع عن تجلدّهم وصبرهم وشجاعتهم على مواجهة قدرهم ، ماداموا يجدون كل هذا الذى يرضى غرورهم وكبرياءهم .

ولكننا إذ نجود ونسخو بكل هذه المشاعر الطيبة نحو هؤلاء المحظوظين من أبناء الدنيا ، نكاد لا نشعر بذلك الذى يخبط فى وادٍ من ظلام الحياة ، تتقاذفه العقبات والصعاب ، ويواجه الكوارث والمحن ، دون أن يسمع كلمة عطف من صديق ، أو يرى نظرة إعجاب من رفيق ، أو يجد يداً تمتد إليه مصافحة ، أو إيماءة من رأس بتحية ، أو حتى مجرد التفاتة تعبّر عن الدهشة لما يكابد من آلام ، وما يعانى من تجاهل وإهمال ..

والعجيب فى هذه الحياة ، أن أتفه طارىء يلم بانسان مشهور أو شخصية مرموقة ، يعتبره الأصدقاء والمعجبون ، والأهل والمحبون ، كارثة أو نكبة ، تتبارى الألسنة فى التحدث عنها بنبرات التفجع والرثاء ، كما تتسابق الأقلام الى الكتابة عنه بأساليب من البلاغة الرائعة والبيان المشرق ، بينما ، تظل تلك المآسى والكوارث التى يعيشها المغمورون ، والمحرومون من المكانة المرموقة والصيت الذائع ، والمدلجون فى ليل مظلم من

شقائهم الطويل ـ تظل كأنها لا وجود لها ، ولا وجود للذين يتجرعون غصصها ، ويضربون فى تيه الحياة ، على صخورها وأشواكها .

اننا ـ على سبيل المثال ـ نكاد لا نشعر أو لا ندرك شيئا من تلك الكوارث والأرزاء التى تنقض على صغار البحّارة والجنود ، فيثبتون لها ويتجلّدون تحت سياطها دون أن يجأروا بالشكوى ، بل دون أن ينبسوا بكلمة ضيق أو تذمّر أو احتجاج ، بل قد لا يخطر لهم ببال أن يتفاخروا ـ ولو بين رفاقهم ورصفائهم ـ بما كان لهم من مواقف البطولة والفداء ، التى تمخضّت عن كل ما يلاحقهم ويربض على كل خطوة فى طريق حياتهم من شقاء .

ولعمرى ، كم تذهلنى الدهشة ، وكم يملأ نفسى التقزّز والاشمئزاز ، حين أسمع أولئك الذين ، لا يفتأون يشكون من سوء الطالع وقسوة الأقدار ، لأنهم ـ مثلا ـ لم يستطيعوا أن يقوموا برحلة أو رحلات الى هذه العاصمة أو تلك من العواصم التى ارتبطت فى أذهانهم بصورة من صور المتعة واللهو ، أو لأنهم لم يصلوا الى ما يطمحون اليه من الآمال الكبيرة التى يتوهمّون أن ما لهم من حظ موفور ، كان ينبغى أن يؤهلهم للوصول اليها ، غافلين عمّا يعانيه أولئك المغمورون من صنوف البؤس والشقاء ، دون أن يرتفع لهم صدر بآهة ، أو تتشنّج لهم حنجرة بأنّة ، أو أن نرى على وجوههم دمعةً تنحدر من عيونهم الذابلة لتجف دون أن يراها أو يشعر بها مخلوق .

أولئك المحظوظون ، يأكلون ما يشتهون ، وينامون ملء جفونهم كما يريدون ، وبين أيديهم الخدم يتسابقون الى مرضاتهم ، وتلبية طلباتهم ، وهذا الى ما يحتضنهم ويحنو عليهم من عواطف الصحب والأهل والأصدقاء ، بينما أولئك ، الأبطال المجهولون ... أبطال الصبر والتجلد والمعاناة ، يتسكّعون على الأرصفة ، يتنقلون من مكان الى آخر ، ومن شارع الى زقاق ، دون أن يجدوا صديقاً يواسيهم أو يسأل عنهم ، أو يُقيلَ عثرةَ مبتور الرجلِ أو الساقِ ، أو مقلوعِ العين منهم ... بل دون أن يجدوا حتى المأوى يلوذون به ويلجأون إليه من المطر وسياط الصقيع ...

ولابد لى أن أعترف ، أن هذه الأفكار والمشاعر ، وأن ملاحظة هذه الظواهر الشائعة ، وما فيها من تناقض عاصف مثير ، قد استغرقتنى عندما قابلتُ ، منذ أيام ، بمصادفة بحتة وعابرة ، شخصا بائسا ، كنت عرفته فى أيام الطفولة والصبا ...

كان يرتدى مِعطفَ بحّار ، ويمدُّ يده متسولاً ، فى أحد مداخل البلدة ، واقفا بساق من الخشب ... وسرعان ما عرفته ، وتذكّرت أنّه كان انسانا أمينا وعاملا مخلصا ، ولم يكن فى

مظهره فى تلك الأيام ، ما ينذر بأنّه سينتهى إلى هذا المصير التعس ، وأسرعت أقدّم اليه ما قدّرت أنه مرضٍ ومعقول ، ووجدت نفسى متشوقا لمعرفة الظروف والأحداث التى ألمّت به وتعاقبت عليه ، فأصبح هكذا يقف على ساق من الخشب ، ويمد يده متسولا السابلة وهو الذى أذكر أنه لم يكن يرضى إلاّ بلقمة العيش تأتيه بما يبذل من جهد وعرق .

وسرعان ما فهمت أنّه أصبح من الجنود المقعدين بما أصابهم من عاهات ، فى ميادين القتال . ولم يكد يسمع تشوقى الى سماع قصة مأساته ، حتى أخذ يهرش شعر رأسه ، ويرتكز على عكاّزه ، ويتأهّب لتلبية رغبتى ، بوقفة تساعده على الاستمرار فى سرد تاريخ حياته حيث قال :

إن ما تراه من مصابى ، ليس فى الواقع أكثرَ مما أصاب زملائى ، إذ ـ باستثناء ما تراه من بتر ساقى ، واضطرارى إلى التسول ، ـ ليس لى أن أتظاهر بأكثر من الحقيقة ، كما ليس عندى ما يستحق الشكوى ، وانى لأحمد الله ، كلّما تذكرت زميلى (بل) من فَوْجِنا ، الذى فقد ساقيه « كلتيهما » لا ساقاً واحدةً مثلى ، كما فقد إحدى عينيه أيضا فالأمر بالنسبة لى ليس الى ذلك الحد من السوء .

ولعلك لا تعلم انى ولدت فى شرْوبْشاير ، وكان أبى عاملا ، حرمتُ منه إذ تُوفى عندما كنت فى الخامسة من عمرى ، ويبدو أن أمى قد توفّيت هى أيضا قبل أن أعرفها ، وبذلك قُضى علىّ أن أنشأ يتيما ، وهذا يعنى ألا أرى من الحياة إلا الملاجىء ودورَ الأيتام ، وحتى هذه الدور ، كنتُ لا أكاد استقر فى إحداها حتى أنقل الى أخرى ، لأن قوانين هذه الدور ، تقضى ألا تستقبل إلاّ الذين وُلدوا فى البلدة أو المدينة التى يقوم فيها الملجأ ، ويبدو أن أحداً لم يكن يعرف فى أى بلدة ولدت ... ويطول بى شرح المَراحل التى مرت بى وأنا أُنقلُ من دار إلى ملجأ ثم من ملجأ الى آخر ، الى أن وجدوا فى النهاية حلاً ، لا أدرى ما هو ؟ ولا كيف وجدوه ؟ وقرروا أن أستقر فى أحد ملاجىء الاقليم ... وقد كنت أتطلّع إلى أن أتعلمّ وأدرس كغيرى ، أو على الأقل أتعلم القراءة والكتابة إن لم يكن من حقى أن أُكملَ مراحل التعليم التى ينتقلُ إليها الآخرون ، ولكن المسؤول عن الملجأ اختار لى العمل ، منذ اللحظة التى وجدنى فيها قادراً على حمل المِطْرقة .. وعلى هذه الحال عشتُ ، خمسَ سنوات ، حياةً مازلتُ أعتبرها مريحةً سهلة ، إذ لم أكن أعمل أكثرَ من عشرِ ساعاتٍ فى اليوم ، أجد فى مقابلها حاجتى من الأكل والغذاء .. وللحقيقة أقول ،

انى لم أحاول الهرب من هذا الملجأ ، كما ظلَ المسؤولون يتوقعّون قياسا على غيرى من الذين لا تعجبهم الحياة فيه .. ثم لماذا أهرب ؟؟؟ لقد كنت مطلقَ السراح فى جميع رحاب الملجأ ، وفى الساحة الواسعة أمام بوابة ، وكان هذا ما لم يحدُثْ أن تطلّعتُ الى أكثر منه قط ... لكن يبدو أنهّم رأوا أنى قد بلغت السِّنَّ التى يجب أن أخرجَ فيها الى الحياة ، فأوصوا لى بعمل لدى أحد المزارعين تقبّلته مسرورا ، حيث كان لى أن أمارس عملى فى المزرعة ، بسهولة ويسر ، ودون ملاحقةٍ أو ضغط ، وحسبى أنى كنت أجد الغذاء الجيد والمكان الذى آوى إليه دافئاً فى أيام الشتاء ، ولكن صاحب المزرعة تُوفىّ ، ووجدت نفسى مرغما على أن أبحث عن عمل ، وأن أشق طريقى الى الحياة بنفسى منذ ذلك اليوم .

ولا أطيل عليك ، فقد ظللت أتنقل من قرية الى قرية ومن بلدة الى أخرى ، حيث أعمل إذا وجدت عملا ، وأتبطّل وأقضى اليوم واليومين جائعاً حين يتعذّر أن أجد من يحتاج الى عملى .. وفى ذات يوم ، كنت أتجول باحثا عن عمل ، والجوع يكاد يمزّق أمعائى ، وحدث أن كان خطُّ سيرى عَبْرَ حقلٍ يملكُه قاضى الصلح والأجراء ، وفجأة لمحتُ أرنباً برِّيا ، لست أدرى كيف عبث الشيطان ـ أو ربما الجوع ـ بعقلى ، فتربصّت به وحين اقترب منى ضربته بعصا كانت فى يدى .. ولا أظنك تتوخى نتيجة سوى أن يسقط الأرنب اللعين ميتا ، .. فشرعت اتناوله وأهرب به ، عندما شاءت الأقدار ، أن يظهر القاضى نفسه بلحمه وشحمه فجأة أمامى والأرنب الصريع فى يدى .. فما أسرع ما أمسك بتلابيبى ! وهو يلعننى ، ويصفنى بسارق الصيد ، والانحطاط ، ثم طلب أن أبرز ما يثبت شخصيتى .. انحنيت على قدميه ، رجوته العفو عن زلتى ، وشرعت أحدثّه عن نفسى ... عن قصة حياتى كما عرفتها ، وكما سمعت عنها ممّن قيل لى : فى طفولتى انهم يعرفون أبى وأمى ، وقد كنت حريصا على أن أكون صادقا فى كل كلمة قلتها .. ولكن القاضى لم يقتنع بشىء مما قلت : واتهمنى بالتلفيق ، والتشرد مما استلزم ، أمره بسجنى أو حجزى ، فى سجن (نيوجيت **NEWGATE**) فى لندن ، حيث كان التشرد هو التهمة الثابتة علىّ ..

وقد يقول : الناس شيئا كثيرا عن حياة السجون .. وهم فى العادة يصفونها بالرهبة والقسوة ، ويألمون لتطويق حريّاتهم فيها ، وينتظرون اليوم الذى يصدر الأمر بالإفراج عنهم ... أما أنا فقد وجدت سجن (نيوجيت) مكانا لا يقل فى شىء عن أى مكان عرفته منذ فتحت عينى على الحياة .. يكفى أن احشائى كانت مليئة بالطعام ، وهذا دون أن اطالب بأى عمل أو مجهود ، ولم أر

ما يمنع أن تستمر الحياة هكذا الى الأبد ، ولكن لم تمض خمسة شهور حتى وجدتهم يخرجوننى من السجن ويضعوننى على ظهر سفينة أبحرت مع مائتين من الرجال أمثالى من السجناء فى مختلف سجون انجلترا ، ولم نكن ندرى الى أين ستتجه بنا السفينة ؟ ولا ماذا تقرر لنا من مصير ؟ وبعد رحلة يعلم الله وحده ما لقينا فيها من المشاق ، مات خلالها مائة من ركاب السفينة بسبب الازدحام وضيق المكان وفساد الهواء ، انتهت الرحلة فى إحدى المستعمرات ، حيث دفع بنا حرّاسنا الى عهدة الزارعين البيض فى المستعمرة الأفريقية ... ولك أن تتصور كيف قضيت فى ذلك المكان الموحش والبعيد عن الوطن سبع سنوات ، لم يسمح لى خلالها صاحب المزرعة بالعمل مع البيض ، وإنما مع الافريقيين فقط ، لأنى كما قال : لا أختلف عنهم فى شىء مادمت لا أعرف القراءة والكتابة .

وانتهت المدة التى يبدو أن الاتفاق بين السلطة وبين المزارعين فى المستعمرة قد قرروها ،... سبع سنوات كاملة أذنوا لى بعدها بالإبحار الى الوطن ...، ولا أستطيع أن أصف لك فرحتى بالعودة الى انجلترا ... لست أدرى ما هو شعورك أنت والكثيرين الذين لم يجربوا الابتعاد عنها ؟ ولكن أنا ، لست أدرى كيف أعبّر لك عن حبى لها ؟.. وإن كان هناك ما كنت أتحسّب له وأخشاه ، فهو أن تلاحقنى تهمة التشرد مرة أخرى ، ولذلك فقد حرصت ، بعد وصولى ، على الابتعاد عن المدن الكبيرة ، وأن اتوارى فى القرى والمدن الصغيرة ، وأن أمارس حيث أجد نفسى أى عمل ، لقاء ما يملأ المعدة من الطعام .

هل أطلت عليك ؟؟؟ لاشك ... لاشك ... ولكن قصتى طويلة نوعا ... فقد حدث أن كنت أمشى فى أحد الشوارع بعد الغروب ، حين فاجأنى رجلان وأمرانى بالوقوف ، واحتجزانى ثم قدمانى الى القاضى ،... والتهمة هى التشرد مرة أخرى ... وهنا خيرّتنى المحكمة بين أن ألتحق بإحدى السفن الحربية ، أو أن أجند فى القوات المسلحة . واخترت التجنيد وبهذا أحسست لأول مرة أنى أصبحتُ انسانا محترماً وفى مركز له شخصية ... وشاركتُ فى معركتين هما من تلك المعارك المشهورة فى حربنا مع الفرنسيين ، ومما أعجب له أنى لم أصب إلا برصاصة واحدة فقط ـ هنا فى صدرى ـ واستطاع طبيب الفرقة أن يخرجها وأن أعود سالما .

وبانتهاء هذه الحرب سرَّحونى من الجندية لأنهم وجدوا أن الاصابة التى شفيت منها كانت تحرمنى من القدرة على الاستمرار فى حروب أخرى ـ ولكنهم بعد فترة وجيزة ـ وافقوا على أن أُجَنَّد

فى خدمة الشركة الشرقية فى الهند ... وهناك أيضا كانت لنا حروبٌ مع الفرنسيين ... ولو أننى كنت أجيد القراءة والكتابة لما بخل رئيسُ السرَّيةِ التى كنت من جنودها بأن يرشّحنى لرتبة عريف ، وإذ تعذر ذلك ظللت مجرد جندى مدة طويلة أعفيت بعدها من الخدمة وفى جيبى أربعون جنيها ... تصور - أربعون جنيها - بالتمام والكمال - وكم كنت أتمنى أن أعود إلى انجلترا لاستمتع لأولِ مرة فى حياتى بالتجولِ فى شوارع لندن وفى جيبى هذا المبلغ الضخم ولكن الحكومة كانت تحتاجُ الى الرجال ، ولهذا فقد أمرونى بأن أكون بحاراً فى نفس السفينة التى كانت تبحر بى الى الوطن .

ولم يكن حظى مع رئيسى فى السفينة حسناً ... إذ كان يفسرٍّ جهلى بالعمل من أعمال البحر بأنه كسلٌ وتراخٍ ورغبةٌ فى التهرب من الواجب فما أكثر ما كان يصل به الأمر الى حدٍّ تأديبى بالجلد .. وتصور أنى كنت حتى فى اللحظات التى أُجلد فيها أتعزَّى بأن فى جيبى أربعين جنيها - سوف يتاح لى يوما - أن أتجول فى شوارع لندن وأن أنفقها فى شراء الكثير مما كنتُ أَحْلُمُ بشرائه طيلة العمر .

ولكن ما رأيُك فى أن الفرنسيين قد استطاعوا أن يأسروا سفينتنا ومن عليها ... وبهذا فَقَدْتُ ، ليس الأربعينَ جنيهاً فقط وإنما نفسى وحياتى الحُرة الكريمة كجندِّىٍ إذ لم أعُدْ أكثرَ من أسير .

وفى معتقل الأسر وضع رفاقى خطةً للهرب سرعان ما شرعنا فى تنفيذها ، حيث استطعنا أن نَفْلَتَ من المعتقل بعد أن سقط بعضنا قتيلا كما سقط من الفرنسيين عدد من القتلى ... وكان نصيبى جرحاً فى هذه الساق التى تراها انتهى بضرورة بترها وتعويضى عنها بهذه القطعة من الخشب وهذا العكاز الذى لابد لى أن أرتكز عليه .

أراك تشفق علىّ كأنَّ للقصة كلَّ هذه الأهمية - ولكن ، لا عليك - فاننى أحمد الله على أنى أتمّتع بصحةٍ جيدة وسوف أظلُّ الى الأبد أحب شيئين فى الحياة هما : الحرية - ووطنى الغالى - انجلترا .

ولم يقف صاحبى بعد أن أنهى قصتَه وإنما استدار يمشى على عكازه ويضع فى جيبه قطعة النقود التى كنت وضعتُها فى يده ، بينما وقفتُ أنا ذاهلا وفى نفسى أن هؤلاء الذين نراهم بعاهاتهم على الأرصفة وفى الأزقة وفى الشوارع يتسولون لقمة العيش بعد أن خاضوا الكثير من ميادين الحياة ... هم الأبطال حقا .

رسام القطط



رسام القطط

كان يعيش فى احدى قرى اليابـان الصغـيرة فلاح فقـير وزوجتـه مع عدد من الاطفال ، وكانت الاسرة على ما تعانيه من قسوة الحياة ، معروفة بالطيبة وحسن السمعة بين جميع اهل القرية .

وكانت مشكلة الاسرة ، او على الاصح مشكلة الاب والام ، هى تأمين ما يحتاجه الاطفال من الغذاء والملبس . وكان الابن الاكبر قد بلغ الرابعة عشرة من عمره واصبح قادرا على ان يساعد اباه فى اعمال الحقل ، كما تعلمت الفتيات الصغيرات ان يساعدن امهن على اعمال المنزل ، رغم انهن لم يكنَّ اكثر من اطفال صغار .

ولكن أصغر ابناء الاسرة ، لم يكن يبدو انه سوف يكون قادرا على العمل عندما يكبر .. كان حاد الذكاء .. بل كان اكثر ذكاء وفطنة من جميع إخوته ، ولكنه كان نحيل الجسم ، ضئيل الوزن بحيث كان الناس يقولون : ان هذا الصبى لن يقدر ان ينمو نموا يجعله قادرا على العمل .

ولذلك فان والديه فضلا ان يوجهاه الى التعليم بحيث يمكن ان يصبح واعظا بدلا من ان يعمل كإخوانه فى الحقل .

وفى ذات يوم اصطحب الأب ابنه الصغير الى قسيس المعبد القديم ، وكان رجلا كهلا لم يمانع فى ان يقبل الصبى الصغير وان يعدهم بتعليمه القراءة والكتابة وجميع العلوم التى ينبغى ان يعرفها القساوسة فى المعبد .

وبدأ القسيس يتحدث الى الغلام بصوته الخفيض الرقيق ويسأله بعض الاسئلـة الصعبة على امثاله من الغلمان ولكن ما اشد ما اعجب الرجل بأجوبة الصغير الدقيقة ! على كل سؤال وجه اليه .

وعاد الوالد الى القرية تاركا ابنه فى رعاية القسيس فى المعبد حيث بدأ الصبى يتعلم الكثير بسرعة فائقة كانت محل اعجاب القسيس وجميع من فى المعبد من الرواد .

ولكن كانت لهذا الصبى بادرة غريبة ، وهى انه كان يحب ان يرسم القطط خلال ساعات الدرس ، وان يظل يرسم انواعا منها حتى لقد يملأ الصفحة برسوم القطط دون اى مبرر من اى نوع .. وتطور الامر بحيث اصبح الصبى مشغولا برسم القطط كلما وجد نفسه منفردا فى مخدع نومه .. ثم بدأ يرسم القطط على هوامش كتب القسيس وعلى ستائر المعبد ثم على الجدران واخيرا على الاعمدة .

ومع أن القسيس كان ينصحه كثيرا بأن يقلع عن رسم هذه القطط ، وان ينصرف الى دراسة المواد التى يأمره بحفظها فان الصبى كان لا يقصر فى حفظ ودراسة كل مادة ، ولكن لا سبيل الى توقفه او اقلاعه عن رسم القطط اينما وجد مساحة او فراغا لرسمها ... وكان يقول فى نفسه : انه لا يستطيع ان يقلع عن رسمها بأية حال ... وبذلك اصبح مدرسه القسيس مقتنعا بان الصبى يمكن ان يصبح رساما ولعله يبلغ مكانة بين عباقرة الفن ، ولكن لا سبيل اطلاقا الى ان يصبح قسيسا او واعظا فى المعبد حيث لا علاقة بين الوعظ والرسم اذ ان الرسم يحتاج الى هذه الموهبة بينما الوعظ يحتاج الى قراءة الكتب ودراستها .

وبعد ان فرغ الصبى ذات يوم من رسم صور عديدة لانواع من القطط على ستارة من ستائر المعبد لم يجد مدرسه القسيس بداً من أن يناديه وأن يقول له بقسوة : (اسمع يا بنى .. عليك ان تغادر هذا المعبد حالا ودون ابطاء اذ لا سبيل الى ان تصبح قسيسا كما يريد ابواك ... ولكن يحتمل ان تصبح فنانا عظيما .... ودعنى الآن اعطيك آخر نصيحة من نصائحى ... وعليك ألا تنساها ابدا وهى : « أن تتجنب الاماكن الكبيرة فى الليل ، وان تلتزم الصغيرة منها دائما » ...)

ولم يفهم الصبى ماذا عنى القسيس بقوله : « تجنب الاماكن الكبيرة ، والتزم بالصغيرة » ... وظل يفكر طويلا فى اللحظات التى كان يجمع خلالها ملابسه ولوازمه الصغيره ليغادر المعبد كما امره القسيس ... ولكنه لم يهتد الى حل او الى اى مفهوم من هذه النصيحة التى قال القسيس إنها آخر نصائحه اليه كما لم يجرؤ على ان يستفسر من القسيس عن معنى او مغزى نصيحته فاكتفى بان ينحنى مودعا وان يغادر المعبد ، وفى قلبه

الكثير من الاسف والحزن والحيرة فى ماذا ينبغى ان يفعل منذ اليوم ؟ وبدا له انه لن يجد ترحيبا من والديه اذا عاد الى منزله ، وليس من المستبعد ان يرتب عليه ابوه عقابا صارما حيث سيعتبر عودته الى المنزل دليلا على كسله وتمرده على استاذه وعدم طاعته للاوامر والنظام المتبع فى المعبد .

تحاشى الذهاب الى المنزل خوفا من العقاب .. فظل يمشى وهو يفكر حائرا ، ولكن سرعان ما أبرق ذهنه بخاطر قرر ألا يتردد فى تنفيذه وهو : اللجوء الى معبد كبير سمع عنه على بعد بضعة اميال من المكان الذى يمشى فيه ، وان فى هذا المعبد عددا من الكهان والقسس ، فما الذى يمنع ان يطلب منهم قبوله تلميذا لديهم ؟.

وكان هذا المعبد مغلقا لأن شبحا غريبا ظهر للقسس فهربوا منه ولم يعودوا الى المعبد خوفا منه .... وقد قيل ان بعض الفرسان المشهورين بالشجاعة والاقدام سمعوا بحكاية الشبح واغلاق المعبد وقرروا ان يهاجموه ويقضوا عليه ولكن العجيب فيما يحكى ان جميع الفرسان الذين قاموا بالمغامرة ، لم يخرجوا من المعبد ولم يرهم احد منذ دخوله .

ولم يكن الصبى يعلم شيئا عن حكاية المعبد الذى قرر الذهاب اليه وعن هذا الشبح الذى ظهر وطرد القسس ثم اعتقل ، او هو قد أكل الفرسان الذين هاجموا المعبد للقضاء عليه .. ظل الغلام يمشى نحو القرية التى يقوم فيها المعبد ، وفى صدره أمل عريض بألا يرى القسس بأسا فى قبوله تلميذا لديهم .

وحين وصل القرية كان الظلام قد خيم عليها ، وكان سكانها قد آووا الى فراشهم ، ولكن الصبى رأى المعبد الكبير على هضبة عالية الى الجانب الآخر من الشارع الرئيسى ، كما راى ان فى المعبد اضواء ظل سكان القرية يقولون ان الشبح هو الذى يشعلها ليغرى اولئك الذين يسافرون وحدهم بالذهاب اليه .

ولم يتردد الصبى فى الاتجاه نحو المعبد وحين وصله اخذ يطرق الباب ، واذ لم يسمع من يجيب بشىء فقد ظل يعاود طرق الباب بلطف مرة وبشدة مرة اخرى ، وعندما طال به الامر والوقوف امام الباب دون ان يسمع او يرى احدا وجد نفسه يدفع الباب برفق ، فاذا به يفاجأ بأن الباب غير مغلق وان مصراعه ينفتح دون مشقة او عناء ، وبذلك لم يجد الصبى ما يمنع ان يدخل حيث رأى مصباحا مضيئا ، ولكن دون ان يرى مخلوقا من البشر .

ومشى فى المدخل قليلا ، ثم جلس على احد المقاعد ، وفى نفسه ان احد القسس لا بد ان يظهر فى أية لحظة .. ولكن ما كاد يجيل بصره فيما حوله حتى رأى ان جميع جدران المعبد وارضه مغمورة بالاتربة ، وان سقفه مغطى بنسيج العنكبوت . ورغم دهشته لما يرى فقد فرح اذ قدّر ان القسس لا بد ان يرحبوا به كتلميذ يساعدهم فى تنظيف المعبد على الاقل .. ولكن لم يجد بدا من ان يتساءل عن السبب الذى جعل القسس يهملون المعبد الى هذا الحد الذى بدا معه كل شبر فيه مغمورا بالاتربة وخيوط العنكبوت . وحتى فى هذه اللحظة لم يملك الا ان يغتبط وهو يرى ستارة بيضاء قدّر أنها تصلح لأن يرسم عليها القطط كما هى عادته . ومع انه كان مرهقا نتيجة للمشى الطويل ، فإنه أخذ يبحث عن حبر وقلم سرعان ما وجدهما فى الرواق امامه ، فلم يضع دقيقة واحدة اذ اخذ يرسم القطط على الستارة البيضاء .

وظل يرسم هذه القطط على كل ستارة وجدها فى أروقة المعبد او منافذه دون كلل او ملل ولكن بعد فترة من الوقت أحس بحاجته الى الراحة والنوم ، غير أنه قبل أن يضطجع بجانب احدى الستائر التى رسم عليها القطط تذكر كلمات القسيس ، التى قال انها آخر نصائحه له : « تجنب الاماكن الكبيرة والتزم الصغيرة » ...

وكان المعبد اكبر كثيرا من ان يجد فيه الصبى مكانا صغيرا ، ومع انه لم يكن يدرك اى معنى لنصيحة استاذه فقد اخذ يشعر لأول مرة بالخوف واعتزم ان يبذل جهده فى العثور على مكان صغير ينام فيه ، ولم يجد بعد بحث طويل الا خزانة صغيرة بباب انزلاقى فتحه ودخل ثم أغلق الباب على نفسه وهناك فى الظلام الدامس اضطجع واستسلم للنوم .

وفى الليل ، والظلام يحيط به فى الخزانة التى آوى اليها هب من نومه مذعوراً بما سمع من ضجة رهيبة وصرخات كأنها تلك التى سمع عنها فى الاساطير والحكايات ... واستولى عليه الذعر الى حد أحس معه أنه لا يستطيع حتى الحركة البسيطة ليرى ما الذى يمكن ان يكون هناك ؟.

ومع ذلك فقد بذل جهدا اتاح له ان ينظر عبر شقوق الخزانة التى آوى اليها ليرى ان الظلام قد غمر المعبد كله بحيث اصبح اكثر وحشة ورعبا ، وكان الصراع والصيحات الاسطورية يتواليان ، وظل الحال مستمرا وقتا بدا للصبى انه لن يصل الى نهاية قط ...

وفجأة خمدت الاصوات والصرخات وساد المعبد صمت رهيب ظل معه الصبى ملازما خزانته مفتوح العينين الى ان تلامح ضوء الفجر .

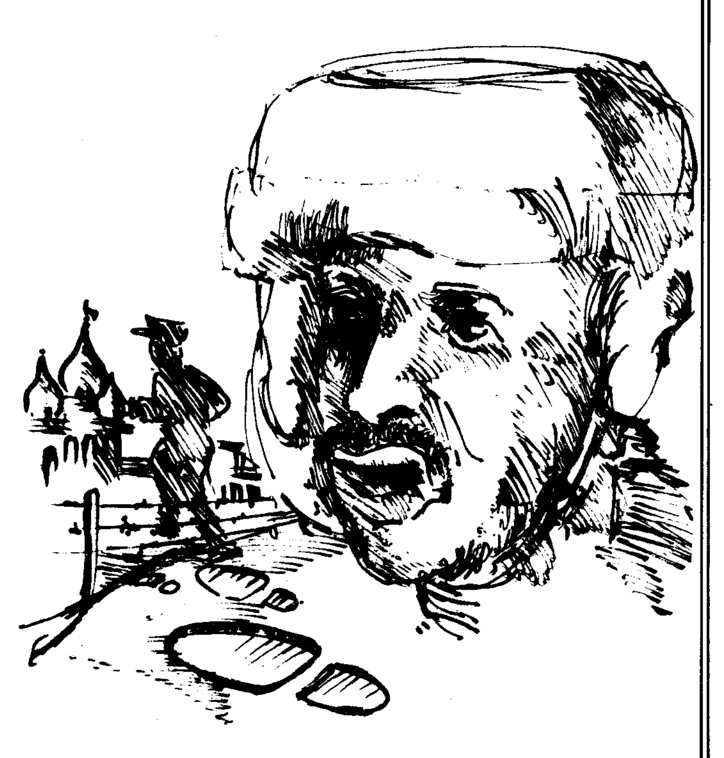
وخرج من مكمنه بحذر وترقب ليرى ان ارض المعبد كلها مغمورة بالدماء التى لم يشك أنها دماء اولئك الذين ظلوا يتقاتلون طيلة الليل ... ولكن ما كاد يمشى قليلا حتى رأى ما لم يكن يصدق ان يرى مثله فى حياته قط بل لم يكن يصدق احد فى الدنيا انه يمكن ان يوجد على وجه الارض .

كان الذى رآه مخلوقا غريبا له كل شكل الفأر ولكنه ضخم حتى ليكاد حجمه يزيد عن حجم ثور كبير .

ولكن ترى من هو الذى استطاع ان يقتل هذا الوحش ... لم يكن هناك مخلوق آخر ... كما لم يرَ الصبى جثثا اخرى مما يمكن ان يكون فى صراع مع هذا الوحش ... واخذته الدهشة والعجب حين التفت الى الستائر التى رسم عليها القطط ليرى أن افواهها حمراء وما تزال مبللة بدم الوحش الصريع ... وعندها فقط أدرك ان القطط التى رسمها هى التى قتلت ذلك المخلوق الغريب وعندها أيضا فهم الذى عناه استاذه بنصيحته التى أسداها اليه وهو يأمره بمغادرة المعبد .

ولا نحتاج الى أن نقول ان ذلك الصبى قد اصبح فيما بعد من عباقرة الفن فى اليابان . وكثيرا ما يرى السائحون ، وزوار المعابد فى اليابان رسوم القطط التى كان يرسمها ذلك الفنان العظيم .

قصة مسلم هارب من الاتحاد السوفيتي



قصة مسلم هارب من الاتحاد السوفيتي

كانت حملات الابادة والقتل الجماعى والتشريد ، والاستيلاء على أراضينا وماعليها من الثروة الحيوانية الضخمة ، ومن أهم أنواعها الخيل ، إلى جانب الماشية والأنعام ، ثم الأحراش والغابات بأخشابها الثمينة بل وحتى على خيامنا من اللبّاد التى نقيمها فى البرارى مع اطلالة أيام الربيع ، وبيوتنا من الخشب الغالى التى نأوى إليها فى قرانا فى أيام الشتاء ، كانت هذه العمليات تتوالى علينا عدة مرات فى الشهر ، بحيث استطعنا بعد أن عشنا التجربة ، كما عاشها أصحاب القرى المجاورة من مواطنينا ، أن نفهم بوضوح أن الحزب الشيوعى فى موسكو ، ينفّذ مخططا مدروسا إما لاقتلاعنا من أوطاننا وانتزاع ماتملكه من المساحات الشاسعة على امتداد المنطقة الاسلامية الكبرى فى روسيا وهى كازاكستان وتركمانستان وأوزبكستان ، وإما للقضاء على عناصرنا قضاء نهائيا بحيث لايبقى منا أحد إلا أولئك الذين يستطيعون أن يتسلّلوا إلى أفغانستان .

وأراضينا ، تقع فى المنطقة التى تشملها روسيا كما كانت تسمى فى العهود القيصرية ، ولذلك فقد أصبحت بعد الثورة البلشفية ، جزءا من الاتحاد السوفيتى ، أو جمهوريات الاتحاد السوفيتى كما يسموّنها تغطية لحقيقة صارخة وهى أن هذه الجمهوريات ليست أكثر من مستعمرات ورثتها الثورة الشيوعية من الحكم القيصرى ، ومارست على شعوبها ، وعلى كنوز أرضها شر أنواع العسف والطغيان ، الذى يجعل الروس أنفسهم يترحّمون على كل ماسجّله التاريخ على قياصرة الروس من استبداد وظلم واضطهاد .

ولاشك أن مما يضيف إلى عوامل الحقد الروسى الشيوعى علينا نحن المسلمين ، أن طواغيت المذهب الشيوعى يعلمون أن العقيدة الاسلامية ، التى يعتنقها جميع سكان مناطق كازاكستان وتركمانستان وأوزبكستان ، هى العقيدة الوحيدة التى لاتروج عندها الدعوة إلى الزندقة والالحاد ، وأن المسلمين ، كانوا أول من رفع راية التمرد والعصيان ،

والمقاومة عندما أخذ عملاء الحزب يرفعون شعار ماركس ، وهو (أن الدين أفيون الشعوب) وشعار (حرية الضمير) التى فسرّوها بمنح الحرية للمؤمنين ، ومنح نفس الحرية للملحدين ، الذين تقع عليهم مسؤولية الدعاية لما يسمّونه (المعرفة العلمية المادّية .) بينما فسروّا المعرفة العلمية المادية ، بأنها تعليم النشء مناهضة الدين ، وذهبوا إلى أن أى أب أو أم يثبت عليها أنها تلقن أبناءها تعاليم الدين ، وتمدهم بالثقافة الدينية ، تعتبر مخالفة لقانون (حرية الضمير) وهذه المخالفة تستوجب عقوبة حدّدها القانون ..

يضاف إلى كل هذا بالنسبة لعلاقتنا بالروس الشيوعيين ، أن لشعوبنا تاريخا حافلا بالانتصارات على روسيا القيصرية نفسها ، التى لايجهل أحد منا أنها عرفت مانمتاز به من الشجاعة النادرة ، والاستشهاد والتفانى فى الدفاع عن الأرض والعرض والعقيدة ، فهم وان كانوا قد ثاروا على الحكم القيصرى ، فانهم لاينسون ، هزائم اسلافهم التى انتهت بهم إلى تجنّب الاحتكاك بنا ، أو الاعتداء على أراضينا فى حدودها المترامية ، التى كان أقل فرد منا يمتلك منها مئات أو حتى ألوف الهكتارات ، الغنية بالغابات والأحراش ، وبالسهول الخصبة التى تنتج أكثر من نصف ماتستهلكه روسيا من القمح والحبوب وأنواع الغلال .. فاذا كانت روسيا القيصرية قد آثرت نوعا من الهدنة ، وابتعدت عن التدخل فى أنظمة الحكم الاسلامى التى يمارسها حكامنا فى بلادنا ، كما تجنبّت معارضة مناهج التعليم الدينى فى المدارس والجامعات ومعاهد الشريعة والقضاء ، بحيث كنا نتمتّع بما يمكن أن يوصف بالحكم الذاتى .. فان روسيا الشيوعية ، قد فجرّت كل مخزونها من الحقد ، والعنصرية الشرسة ومع كل ذلك ، طبيعة الحكم الشيوعى الذى لايستهدف شيئا كما يستهدف الاستيلاء على الأموال تحت شعار العدل الاجتماعى ، والقضاء على استغلال رأس المال ، وقد كان من سوء حظنا فى هذا العهد ، أننا ملاك أراض وملاك الألوف من رؤوس الخيل ، عدا الماشية ، وما لاحصر له من الأموال فضة وذهبا ، لم نتعوّد ايداعها فى البنوك ، وانما كل أسرة كانت تفخر بالصندوق الحديد الضخم ، الذى يتصدر غرفة كبيرة ، كما تفخر بعدد المستودعات التى تمتلىء بما يجزّ من ذيول الخيل ، واصواف الماشية ، والجلود ، والغلال .

وانا اسوق هذه المقدمة التى قد تبدو للقارىء طويلة ، وربما مملة ، لأقص عليكم ماسميناه معجزة فى تلك الأيام التى كانت كل دقيقة منها تحمل مفاجأة الهجوم على هذه القرية أو تلك ، والفتك باهلها ، من الرجال والنساء والأطفال ، ثم الاستيلاء على

الصناديق الحديدية وعلى المستودعات ، بكل مافيها من اموال ومقتنيات ، وقد زاد فى شراسة حملات الابادة ، والسلب والنهب والتشريد ، اننا كنا لا نتردد فى المقاومة بما تصل اليه ايدينا من اسلحة ، وللأسف لم تكن هذه الأسلحة الاّ الفؤوس والمعاول والحراب ومقصّات جز الصوف ، والقليل من البنادق القديمة والعتاد الذى افسده طول التخزين .. وكانت مقاومتنا تمتاز عن غيرنا من الشعوب التى كانت تعانى نفس حالات الاضطهاد ، اننا نجيد ركوب الخيل ، كما نجيد استعمال الفأس .. وطريقتنا فى استعمال هذه الفؤوس كانت ترعب الذين يقفون فى صفوف الاستشهاد والفداء ، بل كانت الفتيات ايضا يجدن ركوب الخيل ويجدن استعمال الفؤوس .. فلا يكادون يظهرون فى الساحة التى تلتف حولها خيامنا من اللباد حتى ننطلق نحوهم ، فيعطوننا ظهورهم .. وهذا مانريده ونتمناه ، اذ نقذف بالفأس بطريقة ندّرب عليها منذ الطفولة .. ويستقر الفأس فى ظهر العدو ، وماهى إلا لحظات حتى يسقط صريعا ..

ولكن هذا النوع من المقاومة على مافيه من تفان وتضحية ، ووحدة صف كان لابد ان ينهزم امام القوات المزوّدة بالبنادق الحديثة والرشاشات .. بل امام المئات الذين كانت توفدهم المدن والقواعد القريبة من قرانا ، بحيث اصبح من المألوف عندنا ، ان نرى الجنود يهاجموننا إما مع غروب الشمس ، وإما مع شروقها .. واحيانا بعد منتصف الليل .. وكانت مشكلتنا أننا لانعرف متى يجيئون ، ولم يكن ميسورا ان نظل دائما على قدم الاستعداد .. ولهذا فقد اخذنا نبث العيون والأرصاد .. ولكن حتى هذه الطريقة لم تعد بفائدة تذكر ، إذ لم تكن هناك سبل لاتصال عيوننا بنا إلا الخيل .. وهذه ما اسهل ان يراها العدو وان يقتنص ركابها بطلقات الرصاص ..

واخيرا ، استطاع احد كبارنا ان يوثق برجل روسى ، يعمل فى مركز للتلغراف ، واتضح انه لم يكن يقل عنا كراهية للشيوعيين ، وبدأ هذا الرجل يزوّدنا باخبار تحركات القوات التى تقصد مناطقنا .. فناخذ حذرنا ونحتاط وننظم صفوفنا ... وقد نمنى بهزائم امام نيران البنادق والمدافع الرشاشة ، ولكننا نثأر للهزيمة بمن يسقطون منهم بالفؤوس فى ظهورهم .. الى جانب من يسقطون منا ، بل ومن نسائنا بطلقات الرصاص ..

وفى ذات مساء ، قبيل الغروب ، تلقينا من كبيرنا معلومات ، بأن قوة كبيرة تحملها السيارات فى طريقها الى منطقتنا ، وكان الرأى الذى اتفقنا عليه ، هو أن نهجر خيامنا ،

وان نلجأ الى الغابات ، اذ لا قبل لنا بالوقوف فى وجه ذلك العدد الكبـير من قوات الجيش .. واسرعنا نرحل الكهول والعجائز من النساء والأطفال الى الغابات .. ولا أخفى اننا ـ فى هذه المرة ـ قد خامرنا اليأس من ان نثبت لمقاومة هؤلاء الوحوش ... ولكن الذى حدث ان الرجل الروسى ، فى مركز التلغراف ، زودنا بخبر طريف .. هو ان الحملة ستقف فى احدى القرى ، التى شرد الشيوعيون سكانها المسلمين وملأوهـا بسـكان من لوانـا واستونيا ، فى انتظار اوامر جديدة من القيادة ..

وسرعان ماتطوع عدد من شبابنا ، للتسـلل الى تلك القـرية ، لمعرفـة عدد هذه القوات ..

أما نحن شباب القرية وفتياتها ، فقد ، قررنا ألا نلجأ إلى الغابات الا عندما تصلنا أخبار تقدم القوات الشيوعية نحو منطقتنا .

ومضت ساعتان أو أكثر ، ونحن متربصون إلى جانب الجياد ، وفى أجربة كل جواد عدد من هذه الفؤوس التى نعتمد عليها فى الهجوم والدفاع على السواء .. وفجأة .. ظهر اثنان من الشبان الذين تطوعّوا للاستكشاف ، أسرعوا إلى كبيرنا الكهل ، واخبراه ، أن عدد القوات كبير جداً .. ولكن الذى حدث أن سكان القرية من اللتوانيين وغيرهم قد قرروا خطّة للقضاء على هذه القوة كلّها .. وتتلخص الخطة فى إكرام القوات ، بكل مافى مخازنها من الخمور ، واللحوم ، وباقامة مايشبه مهرجانا للغناء والرقص والترفيه . وأنهم قد شرعوا فى تنفيذ الخطة فعلاً ولم يبق فى القرية الآن ، من هذه القوات ، رجل واحد يتماسك أو يستطيع الوقوف على قدميه .. بل لقد رأى الشابان بعيونهما الجنود وقد صرعتهم الخمر ، فاستغرقوا فى نوم عميق ..

وكان الخبر رائعاً .. فلم نضع دقيقة واحدة .. علونا ظهور الجياد ، وانطلقنا نسابق الريح .. ووصلنا القرية ورأينا السيارات ، أولا ، ولكنهـا رابضـة ليس بينهـا واحـدة تتحرك .. وعندما اقتربنا ، رأينا اللتوانيين ، يبقرون بحراب بنادق الجنود أنفسهم بطونهم .. وسرعان ما اشتركنا فى المعركة بفؤوسنا وبحراب البنادق الملقاة هنا وهناك ..

وما كادت خيوط الفجر تتلامح عن بعد حتى كنا قد قضينا عليهم جميعاً .. وإذا لم تخنى الذاكرة ، فقد كان عددهم لايقل عن مائتين ..

تقاسمنا البنادق مع اللتوانيين ، كما تقاسمنا العتاد والذخيرة .. وكان لابد لنا بعد ذلك من أن نلتمس مخرجاً إذ لن يمر الحادث الرهيب بسهولة ..

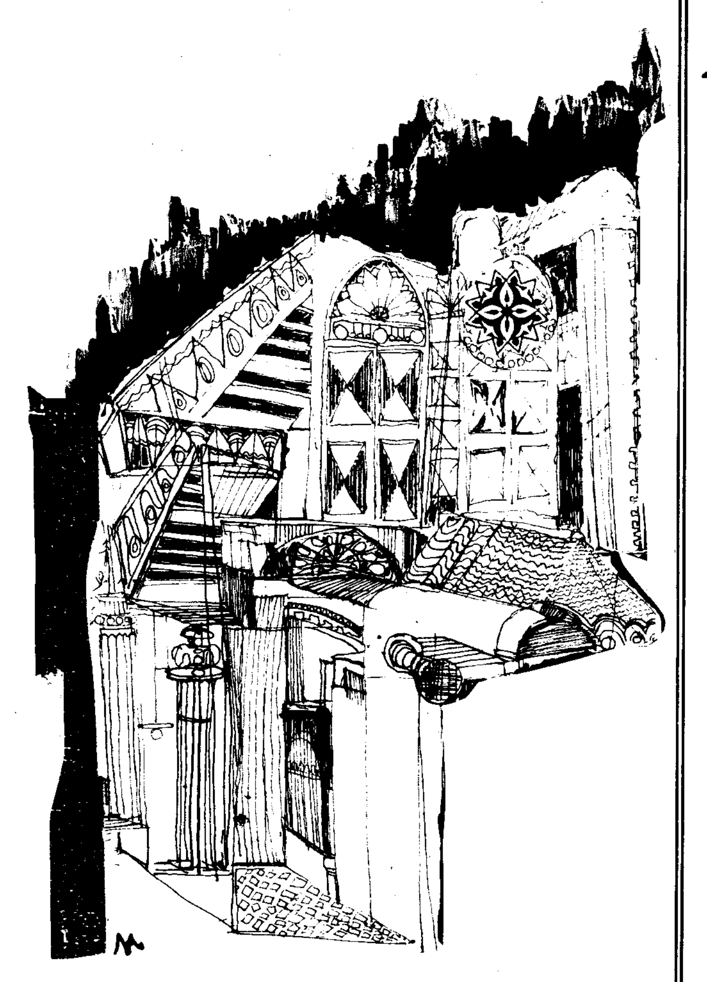
لا أدرى ماذا فعل اللتوانيون .. أما نحن فقد سابقنا الريح إلى منطقتنا ، وقضينا أسبوعا بطوله نكاد لانقف إلا لضرورة قاسية ، إلى أن اجتزنا الحدود إلى أفغانستان .. وكان ذلك آخر عهدى ببلادى .. التى أعلم أنى قد لا أراها إلى الأبد .. ولكن أولادى ، وأحفادى .. يعرفون هذه القصة .. ويسمونها المعجزة ، ولاينسون أبدا ، أن لهم يوما يعودون فيه إلى خيامهم من اللبّاد فى الصيف .. وإلى بيوتهم من الخشب فى الشتاء .

الفونس دوديه

كاتب روائى فرنسى ولد عام ألف وثمانمائة وأربعين وتوفى عام ألف وثمانمائة وسبعة وتسعين ، وكان أسلوبه يمتاز بالواقعية ، وبالروح المرحة التى يعالج بها تصوير أبطال قصصه .. وكان أميل زولا ، وهو رصيفه من كتاب القصة الفرنسيين يسميه (الكاتب الممتع) .. أغلب قصصه يعتمد على تجاربه الشخصية ، وعلى النماذج البشرية التى عرفها وكان يتوخى دائما أن يتتبع فصول حياتها . كان يقول ليس هناك مايسمى اختراعا للقصة أو خلقا للشخصيات ، وانما هناك قوة الذاكرة ، والقدرة على الاحتفاظ بالنماذج البشرية التى يمر بها الكاتب .



مباراة البليارد



مباراة البليارد

بعد أن استمرت المعركة يومين متتاليين ، كان العدو خلالها يدافع دفاعا مستميتا عن الموقع الذى بدأ وكأنّه قرر أن يهلك كل جندى من قوّاته ، وآخر رصاصة من ذخيرته ، قبل أن ينسحب عنه أو يستسلم .... لم يكن غريبا أن يشعر حتى الجنود وضباط الصف القدماء ، فضلا عن الجدد الذين يخوضون المعركة الكبرى لأول مرة ، بذلك الرهق ومايشبه الانهيار الذى لايملك ازاءه الجندى إلا التماس اية فرصة للاسترخاء ولو لفترة لاتزيد عن دقائق معدودة يلتقط خلالها أنفاسه ، ويزيح عن وجهه وعينيه ماغمرهما من دخان النيران وغبار وأتربة قذائف المدفعية الثقيلة ، التى ظل العدو يمطر الفرقة بها ، وعن أحذيته وردائه تلك الأوحال التى تركتها زخّات المطر المتوالية طيلة فترة المعركة .

ورغم ، أن المدينة الصغيرة قد سقطت فى أيديهم وقد أخذت مقاومة العدو تتراخى ، ثم بدأ وكأنّه انسحب بقواته ، فان جميع جنود الفرقة المهاجمة ، وضباطها ظلّوا ينتظرون أوامر القيادة ، طيلة ثلاث ساعات وكل منهم لايتزحزح عن موقعه ، تحت زخّات المطر التى ماتزال تتوالى ، وأقدامهم ، وإلى منتصف أجسامهم غائصة فى الأخاديد والحفر التى تجمعّت فيها مياه الأمطار ، تصفع وجوههم ريح الشمال بكل مافيها من قسوة وتوحش مجنون .

وفى انتظار الأوامر من القيادة ، لم يكن الجنود يجدون ملاذا أو سبيلا إلى الراحة ، إلا بأن يلتمسوا الدفء بأن يلتصق أحدهما بالآخر ، أو أن يستلقى هذا أو ذاك ، هنا وهناك ، على الوحل ، متخّذا من الحقيبة التى يرتفقها على ظهره وسادة خشنة ، والاستلقاء فى مفهوم الجندى ، ليس بأن ينطرح أرضا ويتمددّ ، وانما بأن يظل واقفا مستندا إلى جدار

الخندق ، أو إلى ظهر زميله ، ولايدرى أى منهم كيف يحدث ، أن يغفو اغفاء عميقا ، لايوقظه منه ، إلا احساسه المفاجىء بأنّه يكاد يسقط على الأرض ..

ثلاث ساعات ، وماتزال أوامر القيادة لم تصدر بشىء .. ولاسبيل إلى التصرف اطلاقا إلا إذا صدرت هذه الأوامر التى بدا للجنود أنها لن تصدر إلى الأبد ، وكان ضباط الصف ، والجنود القدماء ، وهم الذين تمرسّوا بالحرب وبالقدرة على مطاولة الرهق ، لايملكون مشاعر الأسى والحزن على أولئك الجنود الشبان الذين بدت على وجوههم خلف مالطخّها من الدخان والوحل ، صفرة وشحوب وضمور أو تغورّ فى الخدين ، ومنهم من كان لايملك ضبط فكّه وهو يرتعد فى حركة لا ارادية ، نتيجة للبرد القارس تجلد به الوجوه ريح الشمال والجوع الشديد ، حيث استنفدوا كل مافى حقائبهم من الأغذية المعلبّة القليلة ، التى يزودّون بها فى العادة ، للتصبر عن الجوع ، إلى أن يحين وقت الوجبة الدسمة فى المعسكر ..

وكان الجميع يعلمون ، أن العدو ، مايزال هناك ، فهو لم ينسحب قطعا ، ورجّح ضباط السرايا أنه ينتظر امدادا ودعما سرعان مايصل ، وعندئذ لابد أن تستأنف المعركة احتدامها .. ولكن بأى طاقة ، وقد أهدرت خلال هذه الساعات التى تمر بطيئة ثقيلة فى انتظار أوامر القيادة .

ومع ذلك ، فإن مقر القيادة لم يكن بعيدا .. كان هذا المقر قصرا من قصور لويس الثالث عشر ، تراه العيون الغائرة ، بأسواره العالية ، وواجهاته من القرميد الأحمر الذى غسلته الأمطار ، شامخا على الهضبة التى أقيم عليها ، يتوهّج بكبريائه العريقة ، خلال الأجمة والأشجار الباسقة على السفح . ولامراء فى أن هذا القصر المترف ، وأبهّته الشامخة ، كان مقرا لائقا ، بأن ترفرف على السارية فى اعلاه راية قيادة الفرقة التى تخوض هذه المعركة من معارك الجيش الفرنسى ، وبأن يستقر فى ...... المارشال القائد بكل مايلتمع ويتلألأ على كتفيه وصدره من الشارات والنجوم والأنواط بألوانها المختلفة ، والحديقة التى تحيط بالقصر ليست أقل من قطعة من فردوس أرضى ، تتوسّط الساحة تحت أنظار من يقف فى احدى النوافذ ، بحيرة صناعية ، تعكس مايحيط بها من ألوان الزهر والشجر ، تتهادى فيها ألوان من البجع ، وتحت سقف عش مصنوع على شكل القصور الصينية ، تتبختر وتتيه مجموعة من الطواويس وأخرى من التدارج ، وهى تلك الطيور التى تتوّج رؤوسها

مجموعة من الريش الملوّن ، تتناسق مع الذيل الطويل يذكّر رائيه بثوب السهرة ، تتيه به غادة حسّانة فى الليالى التى يتألّق فيها الصبا والجمال . وكل هذا بين ذراعين حانيين من أحواض جمعت ما لاحصر ولا عدله من أغلى أنواع الزهر ، تليها شجيرات ، عنى أصحابها بأن تكون من نوع لايرتفع أكثر من أن يبدو صفا من عرائس وحوريات ، لاعمل لهن الاّ أن يملأن العيون بجمال مايتلألأ على صدورهن ونحورهن من أفواف الزهر يتجمّع هنا ، ويتناثر هناك ، ويميل به الفرع حانيا على طرف الحوض ، بينما يشمخ فرع آخر وكأنه يلتقط أنفاسه من انحناءة طالت ، تكريما للناظرين ..

ومع ان سكان القصر واصحابه ، قد رحلوا عنه منذ بدأت نذر الحرب ، فقد كان كل شىء فيه يؤكد ان احساسهم بالجمال ، وشعورهم بقيمة ما ابدعته وابتكرته ومضات الذوق الرفيع على تعاقب اجيال من حياة حافلة بالترف والثراء والجاه كانا اعمق من ان يمدا ايديهم بالتخريب والهدم ، وكأن قذائف المدفعية الثقيلة التى ظلت تسقط فى طول البلدة وعرضها ، وحول القصر وعلى سفح القمة التى يقوم عليها ، قد عز عليها هى ايضا ان تمس التحفة الرائعة ، فلم ير الذين دخلوه فى معية المارشال ، زهرة واحدة ، من هذه الأزهار التى تشع بين العشب الممتد على اتساع المرج ، قد مست او حتى علق بها نثار من الأتربة او الدخان . ولولا الراية التى ارتفعت على السارية فى اعلى القصر ، والجنديان المسلحان على بوابة القصر .. فان احدا لم يكن ليصدق ان هذا هو مقر القيادة العليا للفرقة التى احتلت البلد .

وفى قاعة المائدة ، التى تطل نوافذها على مدخل القصر ، كانت المائدة نفسها ، نموذجا يملأ العين اعجابا بما كان عليه اصحاب القصر من اخذ بأرقى وارق اساليب التنسيق فيما يوضع عليها من أُوان واباريق ، للأكل والشرب ، وكانت ، كأنها قد غادرها الجالسون حولها ، قبيل لحظات ، اذ فرغوا من تناول الطعام ، وخرجوا يودعون الأضياف ، وقد يعودون الى مقاعدهم بين لحظة واخرى ..

ولكن فى الغرفة المجاورة لغرفة المائدة ، كانت ترتفع اصوات احاديث صاخبة وضحكات يزحمها الانفعال والكثير من الاستغراق فى ارسال النفس على هواها ، والضحكة الى مداها ، كما كانت تسمع اصوات اخرى ، هى طرقات مضرب البليارد وتدحرج كراته على منضدته ، وبين آونة واخرى رنين الكؤوس وارتطامها فى حركة تبادل الأنخاب ... حيث قد بدأ المارشال ، قائد الفرقة ، مباراة بليارد مع احد ضباطه ..

وكان هذا هو السبب الكامن وراء تأخر صدور اوامر القيادة بما ينبغى على القوات المرابطة فى ساحة المعركة ان تفعله ، بعد ان تم احتلال البلدة .

ومع ان عددا من ضباط القيادة كانوا يدركون ، حاجة القوات الى الراحة والطعام بعد كل الذى بذلوه من الجهد طيلة يومين ، فقد كانوا يعرفون فى نفس الوقت ، ان لا شىء فى الدنيا كلها يمكن ان يمنع المارشال من التوقف ولو للحظة واحدة عن اتمام المباراة .. قد تسقط السماء على الأرض ، وقد تتحرك الجبال او تتفجر منها البراكين او قد تنشق الأرض فتبتلع القصر بمن فيه .. قد يحدث كل هذا ، ولكنه لن يحول دون ان يواصل المارشال هذه المباراة،ان يواصل هذا المارشال العتيد مباراته وان يستمر فيها الى النهاية غالبا او مغلوبا. وفى هذه اللحظات لم يملك احد ضباطه ان يعلق هامسا ، وهو يرى المضرب فى يده والكرات تتدحرج وتتدافق امام عينيه قائلا : (اذا كان هناك من هنة ، تؤخذ على هذا القائد العظيم من قواد فرنسا فى تلك الحرب ، فهى هذا الهوس الذى يستـولى عليـه ويستغرقه عن كل شىء اذا ما دخل فى مباراة لعبة البليارد .

وقد كان المارشال يقف على منضدة البليارد ، وعيناه على الكرات التى تتدحرج ، او على المضرب فى يد خصمه وكأنه يقف فى ساحة المعركة بالضبط ... وهو الآن يقف فى ساحة البليارد بردائه العسكرى الكامل وعلى كتفيه ، وعلى صدره هذا العدد الهائل من النجوم والشارات والأنواط ، وعيناه تلتمعان ذكاء ودقة فى المتابعة وتعابير التفكير الموغل فى مستقبل حركة كل كرة ومصيرها وكيف ستنحرف الأخرى التى تصطدم بها ، ومع نظرات الصقر هذه تحت الحاجبين الكثيفين وقد وخطهما الشيب يتوهج وجهه احمرارا كلما حقق ضربة نصر ، او يشتعل كمدا ، اذا جاءت ضربة منافسه اكثر براعة ودقة ..

وكان يقف حوله على منضدة البليارد كبار ضباطه واركان حربه ، لا يملكون ان يبدوا اعجابهم كلما حقق نصراً ، وسجل رقما او نقاطا .. اما مرافقـوه ، فما اسرع ما يلبـون طلباته ، وما اكثر ما يتزاحمون على التسابق الى مرضاته !.. فكأن المارشال ، كوكب ، وكأن هؤلاء الضباط ، وعلى كتفى كل منهم شاراته وعلى الصدور شاراتها وانواطها ، كواكب تابعة تدور حوله فى ذلك يتلألأ تحت اضواء الثريات والنجف بما لاحصر له من الأبهة والفخامة والعنفوان .

وكان الضابط الذى يقف امام المارشال فى المباراة خصما عنيدا .. كان ضابطا من اركان حربه ، وكان هو ايضا من المشهود لهم فى الفرقة بالبراعة فى هذه اللعبة التى يتهوس لها المارشال ... حتى لقد قيل عنه انه يستطيع ان يهزم كل مارشال على وجه الأرض .. ولكنه كان يعرف انه يبارى رئيسه فلابد له ان يلعب ، وان يبارى ، وان يتقن الضربات ، وان يسجل من النقط ، ولكن بحيث تتم المباراة بالنتيجة التى تثير حفيظة المارشال ، ولا تحرجه امام المشاهدين ، وهو لن يرضى بان يخرج منها خاسرا وانما بالتعادل فقط ، وفريق الضباط الذى ينتظره المستقبل المشرق ، تحت قيادة المارشال العظيم .

واحتدمت المباراة ، وبدا من فكى المارشال وقد تضاغطا ، ومن نظراته وقد ازدادت توقدا واشتعالا ان المباراة قد بلغت اوجها فى تقديره .. فهو على مشارف ماتوهـم انـه النصر .. سيخرج من هذه المباراة غالبا دون شك ... وباحتدامها ، تحلق حول منضدة البليارد كل من يحق له الوقوف فى القاعة التى يكون فيهاالمارشال من الضباط .. ولكن .. فقد لاحظ بعضهم ومضة ضوء فى السماء عبر النافذة التى تطل على مدخل القصر ، ثم لحظات ، فقط سمع الجميع دوى طلقة مدفع ... ثم ، ومضة وتوهج آخر ، تعقبها جلجلة قذيفة ، اهتزت لها نوافذ القصر .. ولم يملك كل من الضباط المتحلقين حول المباراة ، الا ان يلتفتوا فى قلق وتململ .. ولكن المارشال وحده ، بدا وكأن شيئا لم يحدث ... فهو لا يرى شيئا ولا يسمع شيئا على الاطلاق ، عندما ينحنى بمضربه على منضدة البليارد ، ويوجه ضربته الى الكرة التى يوجهها الى حيث يتوخى ويريد .

ومرة اخرى ، توهجت السماء بالضوء ، وباصوات القذائف ... والآن لم يعد الصوت بعيدا كما بدا فى القذائف الأولى ، فلم يملك ، مرافقو المارشال من الرتب الصغيرة ، ان يسرعوا الى النافذة ... وتساءل احدهم بلهجة استنكار : (هـل يمـكن ان يكون البروسيون ، يقومون بهجوم مضاد ؟؟؟)... واجاب المارشال :

(دعك عنهم)... وامسك بقطعة الطباشير يدهن بهـا رأس مضربـه . ولـم يملك الضابط الذى يبارى المارشال ان يبدى اعجابه الذاهل بهذا القائد الذى استغرقته المباراة حتى فى هذه اللحظات ... وهو كغيره يعلم انها لحظات الحركة والعمل ، يعلم انها اللحظات التى لابد للمارشال ان يصدر عندها اوامره وتعليماته الى القادة والضباط من حوله ..

ولم تعد قذائف المدافع هى التى تتساقط او يسمع الدوى الهائل ، وانما اصوات الرشاشات والبنادق ايضا .. واستبد القلق بالجميع ، وقبل ان يهموا بالكلام ، وقد تفرقوا عن منضدة المباراة ، فاجأتهم سحابة حمراء من الدخان والنيران ، تنبعث من الطرف الأقصى للمروج المحيطة بالقصر ، وتعالت صيحات الطواويس وغيرها من الطيور الغافية على اغصان الأشجار ... وما هى الا لحظات أخرى ، حتى توالت على القيادة العليا ... على مقر المارشال ، الرسائل العاجلة يحملها الفرسان ، ويدخلون القاعة وكل منهم يلهث مستعجلا الرد .. كل منهم ينتظر رد القائد العام .. ولكن ... من ؟؟؟ من يستطيع ان يقترب من المارشال فى هذه اللحظات الحاسمة من المباراة ولم يسمع منه احد شيئا سوى كلمة واحدة وجهها الى الضابط الذى ينافسه يباريه : (انه دورك ايها الرئيس .. العب ..).

ولكن الرئيس ، فى هذه اللحظة كان فى دوامة الموقف الرهيب ، بل لم يكن يدرى اين هو من اللعبة لقد نسى تكتيكه فى الخروج بنتيجة التعادل التى ترضى المارشال .. فوجه الى الكرات مضربه ، وضرب الكرة ، فاذا به يسجل نقطتين متواليتين ، على المارشال .. ودخل القاعة ؛ فارس آخر غارق فى الوحل .. لاهث .. الأنفاس .. زائغ البصر ، ويريد ان يكلم المارشال .. يحاول ان يتقدم اليه .. ولكن المارشال يلتفت .. فى حنق وغيظ .. وهو يقول : (ماذا هناك ؟؟؟ اين المرافقون ... اين ؟؟)..

ويبدأ الفارس يتكلم .. ولكن ما اسرع ما يسمع المارشال ! يقول : فيما بعد .. فيما بعد ... دعهم ينتظروا اوامرى .

وهنا ، تصيب القذيفة نوافذ القاعة ، ويسودها الظلام والدخان ورائحة البارود .. وتوالى سقوط القذائف على القصر ، وفى الحديقة وفى البحيرة الصناعية ..

اما فى الجبهة حيث كان الجيش ينتظر الأوامر ، فقد تساقط القتلى ، بالعشرات والمئات ... كثيرون لم يتزحزحوا عن مواقعهم ،... سقطوا حيث كانوا يقفون ،، فى برك الوحل ... وآخرون اصيبوا بجراح وسقطوا لتدوسهم حوافر خيل البروسيين فى هجومها الذى انتهى ..

انتهى .. بسقوط البلدة فى ايديهم ، وهزيمة الجيش ، وخسائره الفادحة فى الأرواح والعتاد ... ولكن المارشال لم ينس .. انه كان متفوقا على خصمه فى المباراة .

فهرست

إصدارات إدارة النشر بتهامة

الكتاب العربي السعودي

صدر منها:

الكتاب	المؤلف
* الجبل الذي صار سهلاً	المرحوم الأستاذ أحمد قنديل
* من ذكريات مسافر	الأستاذ محمد عمر توفيق
* عهد الصبا في البادية	ترجمة الاستاذ عزيز ضياء
* التنمية قضية	دكتور محمود محمد سفر
* قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا	دكتور سليمان محمد الغنام
* الظمأ (مجموعة قصصية)	الأستاذ عبد الله جفري
* الدوامة (قصة طويلة)	دكتور عصام خوقير
* غداً أنسى (قصة طويلة)	دكتورة أمل محمد شطا
* موضوعات اقتصادية معاصرة	دكتور علي بن طلال الجهني
* ازمة الطاقة إلى أين؟	دكتور عبد العزيز حسين الصويغ
* نحو تربية إسلامية	الأستاذ أحمد محمد جمال
* إلى ابنتي شيرين	المرحوم الأستاذ حمزة شحاتة
* رفات عقل	المرحوم الأستاذ حمزة شحاتة
* شرح قصيدة البردة (دراسة وتحقيق)	دكتور محمود حسن زيني
* عواطف انسانية (ديوان شعر)	دكتورة مريم البغدادي
* تاريخ عمارة المسجد الحرام	المرحوم الشيخ حسين باسلامة
* وقفة	دكتور عبد الله حسين باسلامة
* خالتي كدرجان (مجموعة قصصية)	الأستاذ أحمد السباعي
* أفكار بلا زمن	الأستاذ عبد الله الحصين
* علم إدارة الأفراد	الأستاذ عبد الوهاب عبد الواسع
* الابحار في ليل الشجن [ديوان شعر]	الاستاذ محمد الفهد العيسى
* طه حسين والشيخان	الأستاذ محمد عمر توفيق
* التنمية وجهاً لوجه	دكتور غازي القصيبي

* الحضارة تحدٌّ — دكتور محمود محمد سفر
* عبير الذكريات (ديوان شعر) — الأستاذ طاهر زمخشري
* لحظة ضعف — الأستاذ فؤاد صادق مفتي
* الرجولة عماد الخلق الفاضل — المرحوم الأستاذ حمزة شحاتة
* ثمرات قلم — الأستاذ محمد حسين زيدان
* بائع التبغ — الأستاذ حمزة بوقري
* اعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة — الاستاذ محمد علي مغربي
* النجم الفريد — ترجمة الاستاذ عزيز ضياء
* مكانك تحمدي — الأستاذ أحمد محمد جمال
* قال وقلت — الأستاذ أحمد السباعي
* نبض.. — الأستاذ عبد الله جفري
* نبت الأرض — الدكتورة فاتنة أمين شاكر

تحت الطبع:

* السعد وعد (مسرحية) — الدكتور عصام محمد علي خوقير
* قصص من سومرست موم — ترجمة الاستاذ عزيز ضياء
* عن هذا وذاك — دكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
* قصص من طاغور — ترجمة الاستاذ عزيز ضياء
* الأمثال الشعبية في مدن الحجاز — الأستاذ أحمد السباعي
* افكار تربوية — دكتور ابراهيم عباس نتو
* تأملات في دروب الحق والباطل — الشيخ عبد الله عبد الغني خياط
* خدعتني بحبها (مجموعة قصصية) — الأستاذ عبد الله بوقس
* نقر العصافير — المرحوم الأستاذ أحمد قنديل
* السنيورا (قصة طويلة) — الدكتور عصام خوقير
* أيامي.. — الأستاذ أحمد السباعي

* التاريخ العربي وبدايته	الأستاذ أمين مدني
* ماما زبيدة [مجموعة قصصية]	الأستاذ عزيز ضياء
* مدارسنا والتربية	الأستاذ عبد الوهاب أحمد عبد الواسع
* دوائر في دفتر الزمن «مجموعة قصصية»	الأستاذ سباعي عثمان
* جسور الى القمة	الأستاذ عزيز ضيـــاء
* قال بيدبا	الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار
* هكذا علمني وردزورث	الأستاذ أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري
* عام ١٩٨٤ جورج أورويل [ترجمة]	ترجمة الاستاذ عزيز ضياء
* مشواري مع الكلمة	الأستاذ حسن عبد الحي قزاز
* وجيز النقد عند العرب	الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
* لن تلحد	الأستاذ أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري
* تاريخ الكعبة المعظمة وعمارتها	فضيلة الشيخ حسين باسلامة
* رسائل إلى ابن بطوطة (ديوان شعر)	الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
* الإسلام في نظر أعلام الغرب	الشيخ حسين باسلامة
* فلسفة المجانين	الأستاذ سعد البواردي
* الأصداف (ديوان شعر)	المرحوم الأستاذ أحمد قنديل
* عن هذا وذاك	دكتور غازي القصيبي
* الدمعات الخمس (ديوان شعر)	المرحوم الاستاذ أحمد قنديل
* العقاد	الاستاذ أحمد عبدالغفور عطار

* الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية — الأستاذ نبيل عبد الحي
* النظرية النسبية — دكتور عبد الرحمن فكري
* الأدب المقارن (دراسة في العلاقة بين الأدب العربي والآداب الأوربية) — دكتور عبد الوهاب علي الحكمي
* شعراء التربادور — دكتورة مريم البغدادي
* الفكر التربوي في رعاية الموهوبين — الدكتور لطفي بركات أحمد



صدر منها:

* حارس الفندق القديم — الأستاذ صالح ابراهيم
* دراسة نقدية لفكر زكي مبارك (باللغة الانجليزية) — دكتور محمود الشهابي
* التخلف الإملائي — الأستاذة نوال قاضي
* ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية (باللغة العربية)
* ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية (باللغة الانجليزية)
* تسالـــي — دكتور حسن يوسف نصيف

تحت الطبع:

* مجلة الأحكام الشرعية — للمرحوم الشيخ أحمد بن عبد الله قاري

دراسة وتحقيق:

د. عبد الوهاب أبو سلميان د. محمد ابراهيم أحمد علي

* النفس الانسانية في القرآن — الأستاذ ابراهيم سرسيق
* الرياضة عند العرب في الجاهلية وصدر الاسلام. — الأستاذ أمين ساعاتي
* خطوط وكلمات [رسوم كاريكاتورية] — الأستاذ علي الخرجي
* القرآن ودنيا الانسان — الأستاذ صلاح البكري
* الوحدة الموضوعية في سورة يوسف — دكتور حسن محمد باجودة
* الأسر القرشية.. أعيان مكة المحمية — الأستاذ أبو هشام عبد الله عباس بن صديق
* الاستراتيجية النفطية ودول الأوبك — الأستاذ أحمد محمد طاشكندي
* ألوان — الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
* عطـــر وموسيقـــى — الأستاذ محمد اسماعيل جوهرجي
* اضواء على نظام الأسرة في الاسلام — دكتوره سعاد ابراهيم صالح
* وللخوف عيون (مجموعة قصصية) — الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
* سوانح وخطرات — الأستاذ أحمد محمد طاشكندي
* الحجاز واليمن في العصر الأيوبي — دكتور جميل حرب محمود حسين
* نقاد من الغرب — الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
* ماذا تعرف عن الأمراض — دكتور اسماعيل الهلباوي
* جهاز الكلية الصناعية — دكتور عبد الوهاب عبد الرحمن مظهر

رسائل جامعية

تحت الطبع:

* العثمانيون والإمام القاسم بن علي في اليمن — الأستاذة أميرة علي المداح
* القصة في أدب الجاحظ — الأستاذ عبد الله أحمد باقازي
* الخراسانيون ودورهم السياسي — الأستاذة ثريا حافظ عرفة
* تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف — الأستاذة فوزية حسين مطر
* نظام الحسبة في العراق حتى عصر المأمون — الأستاذ رشاد عباس معتوق
* افتراءات فليب حتى، وبروكل مان على التاريخ الإسلامي. — الأستاذ عبدالكريم على باز

كتاب الناشئين

وطني الحبيب

[حلقات] يكتبها الأستاذ يعقوب إسحاق

صدر منها :

جدة القديمة .

تحت الطبع :

جدة الحديثة .

حكايات للأطفال يكتبها الأستاذ عزيز ضياء

قصص للأطفال تكتبها الأستاذة فريدة فارسي

كتاب للأطفال

لكل حيوان قصة – للاستاذ يعقوب اسحاق

صدر منها :

- القرد ••
- الضب
- الثعلب
- الكلب
- الغراب
- الأرنب
- السلحفاة
- الجمل
- الاسد
- البغل
- الفار ••
- الحمار الاهلى

تحت الطبع :

* الذئب
* الحمار الوحشى
* الفراشة
* الخروف
* الببغاء
* الوعل
* الجاموس
* الحمامة
* الفرس
* الدجاج
* البط
* الغزال